

في ذكرى الرحيل.. بأقلام من الجبهة الديمقراطية

- هذا الكتاب
- لهم المجد والرايات
- قادة من فلسطين
- قادة من حركة التحرير الوطني
- قادة من الحركة النسائية
- أدباء في دروب العمل الوطني
- بالدم .. رسموا لفلسطين
- قادة من الجبهة الديمقراطية

22 شباط/ فبراير 2025

الذكرى الـ 56 لتأسيس
الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين

هذا الكتاب..

■ ربما لو قُدرت قيمة البلدان بكم الدم المبدول فداءً لها، لكانت فلسطين — بمساحتها الصغيرة — أثنى عليها الإطلاق. مواكب من المناضلين الفلسطينيين والعرب ومن جهات الأرض الأربع قضوا من أجلها على امتداد مئة وخمسة وعشرين عاماً، وماتزال أرتال الشهداء تسلك الطريق نحوها حتى اليوم. وإذا كان معظم الفلسطينيين يتحدرون من صلب اللاجئين المكتوين مباشرة بمأساة النكبة الكبرى وما سبقها من مجازر، فإنهم جميعاً بلا استثناء ذاقوا فخر ومرارة وداع واحد على الأقل من أقربائهم على طريق الشهادة.

وعلى الرغم من أن مواكب الشهداء تحتل صدارة المشهد الفلسطيني، إلا أن هذا لا يعني على الإطلاق أن الفلسطيني بات متعاشياً مع الموت. بل على العكس، فهو يؤكد مع فجر كل يوم جديد أنه يعيش الحياة «إذا ما استطاع إليها سبيلاً»، لكنه يريد كما يجب أن تكون: حرة، كريمة، على هيئة وطن نظيف متحرر من الاحتلال.

■ الكتابة عن الشهداء، لا تتصل بـ «أدب الرثاء» المتعارف عليه في التصنيفات الأدبية، لأن لوعة الفقد تنزوي أمام عظمة التضحية ونبل الهدف؛ وهو ما سنلاحظه بين دفتي هذا الكتاب بدءاً من عنوانه «في ذكرى الرحيل .. بأقلام من الجبهة الديمقراطية»، وصولاً إلى نصوص المقالات الواردة فيه، والتي نُشرت في أوقات متفاوتة وعلى منابر وطنية مختلفة، وقد أمكن جمعها بفعل جهد حثيث بذله عدد من المناضلين يدفعهم الحرص على استعادة القيم العظيمة التي مثلها سلوكاً، من سبق على درب الشهادة.



تتوزع مقالات الكتاب على ستة فصول:

■ **الفصل الأول بعنوان «قادة من فلسطين»**، وفيه شهادات كتبت في السير النضالية لستة من القادة الفلسطينيين ممن لعبوا دوراً هاماً ومفصلياً في قيادة حركة التحرر الوطني الفلسطيني:

1- ياسر عرفات- 1929/2004، الشخصية القيادية الفلسطينية الأكثر تأثيراً في مسار العمل الفلسطيني الانتلافي. ترأس، إلى جانب حركة «فتح»، اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية بين عامي 1969 و2004.

2- د. جورج حبش- 1926/2008، مؤسس حركة القوميين والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وهو من الشخصيات البارزة في مسار الثورة الفلسطينية المعاصرة.

3- إسماعيل هنية- 1963/2024، رئيس المكتب السياسي لحركة المقاومة الإسلامية - حماس. إغتالته يد الغدر الصهيونية في العاصمة الإيرانية، طهران- 31/7/2024.

4- أبو علي مصطفى- 1938/2001، أحد قادة العمل الوطني البارزين، تولى موقع الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. إغتالته يد الغدر الصهيونية في رام الله- 27/8/2001.

5- بسام الشكعة- 1930/2019، من أبرز قيادات الحركة الوطنية الفلسطينية في الضفة الغربية، ساهم إلى جانب صف من القيادات الوطنية في الضفة الغربية بتكريس وحدانية تمثيل م.ت.ف للشعب الفلسطيني بمواجهة المشاريع الإسرائيلية لخلق بدائل عن المنظمة.

6- محمد الضيف- 1965/2024، القائد العسكري لكتائب عز الدين القسام والعقل المدبر والموجه لمسار المواجهات العسكرية مع قوات الاحتلال في محطات فاصلة، آخرها «طوفان الأقصى»- 7/10/2023.

■ وتحت عنوان «قادة من حركة التحرر الوطني»، نقرأ في الفصل الثاني مساهمات كتبت في تأيين خمسة من قادة حركة التحرر الوطني العربية:

1- كمال جنبلاط- 1917/1977، من أبرز أعمدة الحركة الوطنية اللبنانية، ورئيسها حتى تاريخ إستشهاده. لعب دوراً مؤثراً في مسار النضال الوطني والديمقراطي على الصعيدين اللبناني والعربي، وكان حليفاً مسانداً للنضال الوطني الفلسطيني وللشعب الفلسطيني عموماً.

2- محمد بنسعيد- 1925/2024، أحد قادة حرب التحرير الوطني المغربية ضد الإستعمار الفرنسي. ربطته علاقة كفاحية متينة بالشعب الفلسطيني وقيادته وخاصة الرفيق نايف حواتمة، الأمين العام المؤسس للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين.

3- أنطون سعادة- 1904/1949، مفكر لبناني أسس «الحزب السوري القومي الإجتماعي». كان سعادة من أوائل الذين دعوا إلى مواجهة المشروع الصهيوني في فلسطين قبل استحقاقه.

4- فرحات حشاد- 1914/1952، مناضل سياسي ونقابي تونسي شكل بدوره الداعم للنضال الوطني الفلسطيني عنواناً للعلاقة الأخوية والكفاحية بين الشعبين التونسي والفلسطيني. في 5/12/1952 تم إغتياله بعملية دنيئة على يد صنائع الإستعمار الفرنسي.

5- أحمد نبيل الهلالي- 1922/2006، مناضل يساري مصري من أبرز مؤسسي «حزب الشعب الاشتراكي»- 1987. يعتبر الهلالي أن الموقف من القضية الفلسطينية يشكل معياراً للفرز بين الأصدقاء والأعداء.

■ الفصل الثالث جاء تحت عنوان: «قادة من الحركة النسائية»، ونقرأ فيه السيرة الكفاحية لـ 6 مناضلات لعبن دوراً بارزاً في قيادة الحركة النسائية الفلسطينية وأطرها السياسية والنقابية:

1- عصام عبد الهادي- 1928/2013، إحدى رموز العمل الوطني والنقابي الفلسطيني. لعبت دوراً هاماً في تظهير الحقوق الوطنية في المحافل العربية والدولية من موقعها كرئيسة للإتحاد العام للمرأة الفلسطينية بين عامي 1965 و2009.

2- نهاية محمد- 1948/2015، نائب رئيسة الإتحاد العام للمرأة الفلسطينية وعضو اللجنة المركزية للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، قادت مفاصل عمل سياسية ونقابية عدة في الجبهة والإتحاد العام، في كل من سورية والضفة الغربية وقطاع غزة.

3- سميحة خليل- 1923/1999، من أبرز المناضلات الفلسطينيات تحت الإحتلال. نشطت في الحركة النسائية منذ خمسينيات ق 20، وساهمت في تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية- 1964، والإتحاد العام للمرأة الفلسطينية- 1965.

4- أمّنة الريماوي- 1957/2021، مناضلة فلسطينية جمعت ما بين الدور السياسي في اللجنة المركزية للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، والدور النقابي القيادي في الإتحاد العام لعمال فلسطين. رُشحت لجائزة نوبل للسلام- 2005.

5- شادية أبو غزالة- 1949/1968، من طليعة المناضلات الفلسطينيات اللواتي إنخرطن في الكفاح المسلح. شكلت أول خلية نسائية مسلحة في الضفة الغربية، واستشهدت خلال الإعداد لتنفيذ عملية فدائية في نابلس.

6- نجلاء ياسين/ «أم ناصر»- 1937/2015، المناضلة السورية التي عشقت فلسطين ونذرت حياتها من أجلها. لعبت دوراً وطنياً وحدوياً كمناضلة في حركة فتح، وكعضو في الأمانة العامة للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية.

■ «أدباء في دروب العمل الوطني» هو عنوان الفصل الرابع، ويضم مقالتين عن أدبيين عربيين بارزين كان لهما دور حيوي في قلب النضال الوطني الفلسطيني:

1- سالم النحاس- 1940/2011، مناضل سياسي وأديب أردني بارز. لعب دوراً مهماً في النضال الوطني الديمقراطي في الأردن، مؤسساً لمنظمة الجبهة الديمقراطية في الأردن- «مجد»، وفي إمتدادها لحزب الشعب الديمقراطي الأردني - «حشد»، وفي تعزيز العلاقة الكفاحية والأخوية بين الشعبين الفلسطيني والأردني.

2- إلياس خوري- 1948/2024، روائي لبناني اختار الانتماء للقضية الفلسطينية، مناضلاً في صفوف حركة «فتح»، مكرساً مؤلفاته ونشاطه الثقافي في خدمة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني.

■ ونقرأ في الفصل الخامس تحت عنوان «بالدم .. رسموا لفلسطين»، إضاءات فنانين تشكيليين إثنيين شكلت فلسطين بوصلة إبداعهما:

1- توفيق عبد العال- 1938/2002، الفنان التشكيلي الفلسطيني الذي ولد في عكا وعاش وتوفي في لبنان. يعتبر عبد العال من أهم الفنانين الفلسطينيين وأكثرهم إنتاجاً وطلايعية.

2- ناجي العلي- 1937/1987، وهو من أشهر الفنانين التشكيليين الفلسطينيين من خلال رسوم الكاريكاتير السياسي التي نشرها في الصحف، ولاقت إنتشاراً وتفاعلاً واسعاً على الصعيدين الشعبي والسياسي.

■ ويختتم الفصل السادس الكتاب بعنوان «قادة من الجبهة الديمقراطية»، وفيه نقرأ مقتطفات من السير النضالية لثمانية من قادة الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين:

1- عمر القاسم- 1941/1989، صاحب أطول فترة يميزها معتقل فلسطيني في سجون الإحتلال في ذلك الوقت- 1968/1989، وقد أطلق عليه لقب «مانديلا فلسطين». شكل عمر القاسم نموذجاً كفاحياً تعترف به الحركة الفلسطينية الأسيرة بكل مكوناتها حتى اليوم. إنتخب عضواً في اللجنة المركزية للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين منذ تأسيسها.

2- عبد الكريم حمد قيس/ «أبو عدنان»- 1927/1992، عضو المجلس الوطني والمكتب السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين. يُعتبر من أعمدة العمل الوطني الفلسطيني في لبنان، دافع بقوة عن حقوق اللاجئين الفلسطينيين الإجتماعية والإنسانية على قاعدة التمسك بحق العودة إلى الديار والممتلكات.

- 3- هشام أبو غوش- 1947/2014، عضو المجلس الوطني والمكتب السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين. تولى مهمات نضالية قيادية عدة في لبنان وسورية والفروع الخارجية قبل عودته إلى الضفة الغربية متابعاً دوره القيادي على الصعيدين، الوطني والحزبي.
- 4- عبد الغني هلالو/ «أبو خلدون»- 1947/2017، عضو المجلس الوطني والمكتب السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين. من الرعيل المؤسس للجبهة، وتولى فيها مسؤوليات نضالية عدة، آخرها أميناً للجنة إقليم سورية للجبهة الديمقراطية.
- 5- خالد عبد الرحيم- 1945/2018، عضو المجلس العسكري لـم.ت.ف، سكرتير اللجنة المركزية للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين. إعتقل خلال تنفيذ عملية فدائية في الأراضي الفلسطينية المحتلة- 1968/1979، وتولى مسؤوليات عدة منها قيادة العمل المسلح للجبهة الديمقراطية.
- 6- خالد نزال- 1948/1986، سكرتير اللجنة المركزية للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، تولى قيادة وتدريب الخلايا المسلحة التابعة للجبهة في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وأشرف على تنفيذ عدد من العمليات الفدائية الناجحة ضد الاحتلال. تم اغتياله في العاصمة اليونانية، أثينا، على يد «الموساد» الإسرائيلي- 9/6/1986.
- 7- سامي أبو غوش/«الحاج سامي»- 1945/1981، عضو اللجنة المركزية للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، ومسؤول إدارتها المركزية. تم اغتياله وزوجته مها أبو غوش بتفجير سيارة مفخخة في بيروت، على يد «الموساد» الإسرائيلي- 1/10/1981.
- 8- طلال أبو ظريفة- 1960/2024، عضو المجلس الوطني والمكتب السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، وأحد قادتها في قطاع غزة. لعب دوراً حيوياً في مواجهة تداعيات حرب الإبادة الصهيونية على قطاع غزة. استشهد بغارة إسرائيلية إستهدفت مكان إقامته شمال القطاع- 16/5/2024 ■

■ ■ ■

■ «في ذكرى الرحيل .. بأقلام من الجبهة الديمقراطية»، هو الكتاب الرقم 48 من «سلسلة الطريق إلى الإستقلال»، وهو يشكل بالحديث عن كوكبة الشهداء التي يستعيد ذكرها في شهاداته، إستعادة لبهاء التاريخ الفلسطيني المعاصر في بعده الوطني .. وفي عمقه القومي ■

المركز الفلسطيني للتوثيق المعلومات
«ملف»

لهم المجد والرايات

معتصم حمادة

■ يذهب الشهيد إلى هجته الأخيرة، فتفرد الأرض ذراعيها واسعتين لاستقبال وليد جديد، يجعل عبق ترابها أكثر عذوبة.

وحين يذهب الشهيد إلى هجته الأخيرة، تنهياً الجدران لاستقبال أجمل اللوحات المزدانة بألوان الوداع الأخير.

حين يذهب الشهيد إلى هجته الأخيرة، تنسج عذروات فلسطين من الأزهار عقوداً، تزين عنق المسافر في رحلته الأخيرة، وينشدن مواويل الزفاف، والفرح، مشوبة بألم الفراق في دمة صامته خجولة لا تدري كيف توارى نفسها عن الأعين.

■ وفي السماء تتلألأ نجوم جديدة، تضيء على أرض ملؤها الزعر وشقائق النعمان، إسمها: فلسطين. ويسارع التاريخ ليفرد صفحة جديدة، يحل فيها ذكر الشهيد أبداً، ويصبح تاريخ فلسطين أكثر غنى. يفرد التاريخ صفحة لقادم رسم خارطة فلسطين على جدران قلبه.

■ يستشهد الشهيد ليشهد العالم على:

أن هذه الأرض لي ...

وأن هذا البحر لي ...

وأن هذه السماء لي ...

وأن الماضي والحاضر والمستقبل لي ...

وأن التاريخ ومعها الرواية لي ...

وأن كل ما عداه هباء تذروه الرياح ...

فالحقيقة الوحيدة هي فلسطين ...

والعشق الوحيد هو عشق فلسطين ...

والحب الوحيد هو حب فلسطين ...

لذلك يذهب الفلسطيني إلى الشهادة، لا يرى فيها فناً، بل حياة تتجدد، يغادر الحياة إلى الوجدان، وإلى الذاكرة، فيصبح شيئاً من الأبد، الذي لا نهاية لنهايته، دائم الوجود في الذاكرة، وفي العيون، وفي القلوب، معلقاً في جيد العذروات والأمهات أيقونة، جعلت من فلسطين أسطورة الأساطير.

■ لا شيء يكافيء الشهيد، وحدها الشهادة والإنغراس في تراب الوطن، هي المكافأة الأعظم.

يرسم المؤرخون كتابات التاريخ باليراع والمداد.

يحفر الشهيد آثاره بدمه، وما زالت علاماته شاهدة في القدس، ومرغنيت، ومعالوت، وبيسان، وعين زيف وطبريا، ترسم معالم مسار شعب نحو شمس الحرية، وما زالت حجارة الإنتفاضة، الملونة بدماء الأطفال والرجال، ترسم واحدة من أكثر محطات تاريخ فلسطين إشراقاً، فالشهادة يصنع التاريخ، ودم الشهيد يصنع للتاريخ مجداً.

أما الكسالى الواقفون في طابور الإنتظار الطويل المنزل، والشامتون بالشهداء، فلا مكان لهم في زوايا التاريخ، فقد إمتلأت الصفحات، ولا شيء إلا ما انتمى لشعب عشق الأرض فقدم أعز ما يملك.

■ شهداؤنا، ليسوا أبناء فلسطين وحدها.

هم أبناء الحرية التي تفرع طبولها في طول الأرض وعرضها، وهم أبناء الشمس التي تشع بنورها في أرجاء الكون.

قرعوا بوابات المدن الكبرى، ودخلوها آمنين، يحملون رسالة إلى شعوب الأرض وساكنيها.

دخلوا القلوب والأفئدة، إحتلوا الوجدان والذاكرة، صاروا هتافاً في تظاهرات الإزدحام العظيم، صاروا راية ترفرف فوق صواري الساحات والجامعات، ومظلة لمن إفتحوا كهوف الظلم، فأحرقوها، وشيدوا بدلاً منها عقيدة للحياة.

وعبر خيط الدم الفلسطيني، إمتدت الرواية الفلسطينية، والأغنية الفلسطينية، والأهزوجة الفلسطينية. لم يكن عجباً أن يرى الفلسطيني في شهداء الشعوب شهداء لوطنه، صارت فلسطين في إعتبرات الشعوب عنواناً للحرية، وصار شهداء الشعوب أبناء لفلسطين، تحضنهم كما تحضن أبناءها.

■ سار في موكب الشهداء رجال ونساء، شباب وشابات، مقاتلون وقادة، عسكريون وسياسيون، مثقفون وأدباء، عمال وفلاحون، كبار سن ويافعون، حفل بهم التاريخ والوجدان، وصار عصياً على الذاكرة أن تنساهم، فهم والخلود سيان، وهم والمجد صنوان، إحتشدوا على شرفات التاريخ، وفي قاعاته المذهبة، كثير منهم ما زالوا يرتدون ملابس لونها الدم، فانتشر عطره وأريجها، وكثيرون منهم رُسمت على صدورهم محطات كبرى، كانوا من أبرز صانعيها. كل الشهداء أبناء للتاريخ، وإن كانوا يتميزون في الأعمار، والأعمال، ومواعيد الوداع واللقاء، والطريق إلى الشهادة.

■ تاريخ فلسطين، تاريخ ثورات وإنتفاضات، وهو كذلك تاريخ نكبات، نهض منها الفلسطينيون في كل مرة أقوى، فالوجه الآخر لتاريخ فلسطين، أنه تاريخ شهداء، لكل مرحلة شهداؤها الذين رسموا وخطوا وقائعها بأعلى ما يملكون، توطد رباطهم المقدس بالأرض أكثر فأكثر، ما يوضح لماذا بقي الفلسطيني صامداً في أرضه، راسخ الجذور في ترابها، ملتصقاً بها، بينما كل من قصدها غازياً، لم يكن في حقيقته إلا عابراً في زمن عابر.

وفي العصر الحديث، تعملت فلسطين وصارت من أبرز عناوين الكون، حماها شهداؤها من الغزو، والتهميش، والتزوير والإندثار، غرقت الأرض، وتبعثر الأبناء، لكن الأم باقية تستمد من تاريخها قوة تجدد وجه الحاضر، وتستمد من وجهها الحاضر، ما يعزز قوة الوجود.

■ شق الفلسطيني طريقه، إمتشق سلاحه، بتنوعه، وجعل من البؤس ملحمة أذهلت العالم، وأغنى قيم الإنسانية، بالقيم الفلسطينية، إحتلت مكانتها في أعلى درجات الوعي الإنساني، ويحق، والحال هكذا، لكل عائلة شهيد ولكل قرية شهيد أن تفخر بشهيدها، كما بات حقاً لكل حزب أو فصيل أو حركة، أن يفخر بشهيدائه، الذين لولاهم، ولولا ما حملوا من رؤى وقيم، لما بقي على قيد الحياة، ولما بقي في مجال الفعل والفتح على المستقبل.

ويحق للجبهة الديمقراطية أن تستعيد من خزائنها، بضع صفحات من تاريخها المعاصر وحاضرها، صفحات من سير مناضلين قادة، مبادرين ملهمين، بقوا على الوفاء حتى آخر قطرة دم، حتى الرمق الأخير.

■ من رعيها الأول المؤسس، إلى رفاق تسلموا الراية، فبقيت ترفرف في سماء القول والفعل، وصناعة التاريخ.

شهادات كتبت بأقلام الرفاق، لمجد الرفاق، صيغت بمداد الشوق وألم الفراق، تتجلى فيها أسمى معاني التبجيل والإحترام والتقدير، إستمدت من المشاعر مسارات ما كان أن تلد لولا ذلك الخيط الذي يربط بين المناضلين، شهداء وأحياء، شهداء ذهبوا إلى النوم راضين، تملؤهم الثقة بأن الأمانة أودعت حيث يجب أن تكون، وأحياء بذلوا الغالي والنفيس من أجل الوفاء وصون الوديعة، التي ما زالت معلقة بالأعناق، مرفوعة الرأس، نظراتها دوماً إلى الأمام، وقبضاتها لا ترتخي، وهاماتها لا تنحني. شهداء في ميادين القتال.

شهداء أنجبهم المخيم فعشقوه إلى أن التحموا بأرضه.

وفي قيادة الحركة النسائية.

كتاب وصحفيون، وفنانون تشكيليون رسموا فلسطين برواياتهم ومشاعرهم وبألوانهم الزاهية.

قادة من حركات التحرر، كانوا أقرب إلى فلسطين، حفظت سيرهم، محبة ووفاء.

الشجعان وحدهم يمشون في طريق التحرير، ليرتقوا إلى صفحات التاريخ، أحياء دوماً.

وحدهم الجبناء يعيشون في الظل، يغرقون في لجة الظلام، مجرد تماثيل تلج سرعان ما تذوب تحت أشعة الشمس ■

1/1/2025

الفصل الأول

قادة من فلسطين

- ياسر عرفات
- د. جورج حبش
- إسماعيل هنية
- أبو علي مصطفى
- بسام الشكعة
- محمد الضيف

ياسر عرفات .. في علاقة الحق بالقوة 1929-2004

- لكم أن تعتزوا، يا أبناء وبنات حركة فتح، بالإنتماء إلى حركة لعبت ومازالت تلعب دوراً مهماً في إطلاق وإدامة المسار الصاعد للحركة الوطنية الفلسطينية المعاصرة؛
- ولكم أن ترفعوا الرأس عالياً بإنتمائكم إلى حركة قدمت الآلاف والآلاف من الشهداء، من بينهم كوكبة من القادة المتميزين الذين إفتدوا فلسطين بأرواحهم؛
- ولكم أن تفخروا بالكبير ياسر عرفات قائداً لحركتكم وزعيماً للحركة الوطنية الفلسطينية، التي لم تختلف عليه، حتى عندما كانت تختلف معه.
- وفي هذه المناسبة الوطنية الجامعة، التي بتنا نحياها سنوياً في مخيم اليرموك، قلب الوطنية الفلسطينية النابض في الشتات، في دمشق العروبة حاملة راية فلسطين؛
- في هذه المناسبة نستحضر ما احتل موقعاً متقدماً في فكر ياسر عرفات وانعكس على عمله طيلة عقود نضاله، وهو **علاقة الحق بالقوة**، أي تلك المعادلة التي ترسم مصير الشعوب.



- لقد كان الرجل- كما هو حالنا جميعاً- يؤمن بأن القوة الغاشمة للمشروع الصهيوني الغاصب، لا تقيم له حقاً في فلسطين؛

● لكنه كان يؤمن أيضاً – وبنفس القدر- أن انتصار الحق الفلسطيني لا يكون إلا باستنفار عناصر القوة الذاتية، فالحق المشروع الذي لا يقوم على القوة يتآكل مع الزمن. هذا ما تثبته وقائع الحاضر، فضلاً عن دروس التاريخ.

● لقد قرأ ياسر عرفات علاقة الحق بالقوة قراءة جدلية صحيحة، فإذا كانت القوة الغاشمة لا تقيم حقاً غاصباً، فإن الحق الشرعي لا ينتصر، إلا بإعداد صاحب الحق كل المستطاع من عناصر القوة؛

● فالحق الشرعي بلا قوة يَبْذَد، والحق الغاصب بالقوة الغاشمة يَنْبَت، وهذه معادلة موضوعية لا انفكاك من أحكامها.



● لقد إنطلق ياسر عرفات وإخوانه في حركة فتح من هذه القراءة، ليُعْمِلوها على معادلات الصراع. وفي هذا كان الصواب، وهو وفير، كما كان الخطأ، وهو خطير.

● وإذا كان الصحيح لا يحتاج إلى تبرير، فإن منشأ الخطأ، كثيراً ما انحكم إلى تقدير مبالغ به لقدرة الحركة الوطنية على تجاوز سلبات ناجمة عن تنازلات كانت تقدم، مقابل ما كان يُقدَّر أنه يندرج في خانة مكاسب، وبرهان أن تفتح هذه المكاسب بدورها على آفاق واعدة لتقدم حركة النضال.

● وفي هذا خطأ في احتساب علاقات القوى، كان ياسر عرفات يستدركه، أو يسعى إلى ذلك كلما نشأ؛ وفي هذا أيضاً تكمن قدرة الرجل، وتتجلى قوة إرادته، بالإقدام على استدارات سياسية، لا بل إستدارات حادة في بعض الأحيان، كانت تنقل الحالة الفلسطينية إلى خيار استراتيجي بديل، كلما استبان له إنسداد الطريق أمام الخيار الأصيل.

● ولعل قراره التاريخي بتفجير الإنتفاضة الثانية، بكل ما انطوى عليه هذا القرار من مخاطر، لم يكن أقلها -وهذا ما كان يدركه تمام الإدراك- ما قاد إلى استشهاده، هو من بين الأمثلة التي يمكن إدراجها في هذا السياق، والتي تسلط الضوء على القامة الحقيقية لهذا الكبير.



● في حضرة الشهادة التي نقف أمامها بخشوع في كل عام، ما الذي نستخلصه من «حقبة» ياسر عرفات؟ نستخلص أولاً، الأهمية التي لا تُضاهى لتجاوز الإنقسام وإعادة بناء الوحدة الداخلية الفلسطينية في إطار مؤسسات م.ت.ف التي لا بديل لها، ولا غنى عنها، وهي المؤسسات التي باتت تستوجب إعادة بناء شاملة لجهة إنفتاحها على تمثيل جميع القوى الفلسطينية تعزيزاً لمكانة م.ت.ف وموقعيتها في العملية الوطنية، بالانتخابات إن أمكن، وعندما يتعذر ذلك بالتوافق الوطني الذي يقود إنتقالياً إلى الانتخابات.

● نستخلص ثانياً، الأهمية الفائقة لإعادة بناء الإجماع الوطني على البرنامج الوطني المرحلي، الممر الإجباري للشعب الفلسطيني على طريق إنتزاع حقه في تقرير مصيره بحرية على كامل ترابه الوطني، أي فلسطين الـ 27 ألف ونيّف كم².

● نستخلص أخيراً، الضرورة القصوى لاعتماد إستراتيجية كفاحية تقوم على ركيزتي المقاومة الشاملة والتدويل: المقاومة بكل أشكالها، وفي القلب منها المقاومة الشعبية وصولاً إلى العصيان الوطني العام من جهة؛ ومن جهة أخرى مواصلة الجهد لتدويل القضية الفلسطينية على أوسع نطاق، إعتراضاً بالحقوق الوطنية، ومطاردة إسرائيل في المحافل الدولية ومحاصرتها ومعاقبتها على إمعانها في إنتهاك المواثيق الدولية وقرارات الشرعية الدولية والقانون الدولي والقانون الإنساني الدولي.



● إن كل هذا يستوجب تعبئة طاقات الشعب الفلسطيني في كافة مناطق تواجده، وتعزيز صموده في الضفة الغربية بما فيه القدس، وقطاع غزة، وتوثيق العلاقة مع الحركة السياسية لأبناء شعبنا، بما فيه تحالفاتها في أراضي ال-48.

وبهذا نستعيد عناصر القوة الفلسطينية التي استشهد الكبير ياسر عرفات وهو بصدد استحضار فعلها، لا بل وهجها المنير؛ وبهذا نكون أوفياء لوصيته، مخلصين لذكراه■

فهد سليمان

23/11/2021

د. جورج حبش .. قائد مؤسس لحركتين 1926-2008

■ في حضرة الشهادة وفي مقام تكريم الرحيل لقامة تاريخية عُقدت لها القيادة على تقاطع الوطني مع القومي في منطقة لم تشف شعوبها بعد من الجرح الغائر لسايكس - بيكو الذي شلَّعها إلى دول وشعوب.. وأمام تجربة نضالية وقفت، ومن موقع المسؤولية، أمام خيارات صعبة.. تجربة تعود إلى ستة عقود مضت.. يصعب الكلام عن د. جورج حبش بطموح الإحاطة بكل جوانب الموضوع شخصاً وتجربة.. فنحن أمام تجربة زاخرة.. الفرد فيها جزء من حركة التاريخ.. بمدى وجزرها.. فما بالك بقائد مؤسس لحركتين إحداهما لعبت دوراً مؤثراً في المدى القومي.. والثانية مازالت تضطلع بدورها المتقدم في المجال الفلسطيني..

وقد يعترض البعض على فصل يعتبره تعسفياً بين هذا المدى وذاك المجال، إنطلاقاً من صعوبة الفصل أو تعذره بين قضايا متداخلة في مشرق لم تلغ التجزئة فيه الواقع الموضوعي لمشاركته، هذا إن لم يكن لوحده..

وهو ما ينطبق، من باب أولى، على الحالة الفلسطينية، شديدة التداخل بمحيطها، تؤثر فيه كما تتأثر به.. ولعل د. جورج حبش هو نموذج القائد الأكثر صفاءً في إنشاده إلى هذه المعادلة بانسجام حديدها وتناقضهما معاً.

■ لقد كان فلسطينياً في قوميته وقومياً في فلسطينيته.. ليس بالمعنى الدارج منذ حرب ال-67 الذي ينطلق من إستقلال النضال الوطني التحرري الفلسطيني ليثمر ما يواشجه مع محيطه.. بل بالمعنى العضوي والسياسي المباشر الذي يتعاطى مع ملف الصراع العربي - الاسرائيلي ببعده الشامل، لكن إنطلاقاً من بؤرته المركزية: فلسطين.. ومن هنا شعار السهم المتجه إلى فلسطين الذي يرمز، على الأرجح، إلى هذا البعد في الفكر السياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

■ وبما أنه يصعب في هذا المقام الكلام عن د. جورج حبش بالمستوى الذي يستحقه حقاً وتاريخاً.. سيتم الإكتفاء بإشارات سريعة إلى بعض جوانب فكره وتجربته التي تشكل إحدى عناوينها الرئيسية - بلا شك - موضوعة الجماهير المعبأة والمنظمة التي هي وحدها صانعة التاريخ، وهي الأساس في معركة التحرير..

وفي هذا إستعادة حرفية لما كان يتردد على لسانه وفي كتاباته دون كلل.. وفي ظني أن آخر أجمل هدية تلقاها فقيدنا الكبير، قبل أيام قليلة من رحيله، هي تلك التي تمثلت بالموجة الجماهيرية العاتية التي اجتاحت جدار معبر الحصار في رفح..

هذا العنوان شكل أحد المحاور الرئيسية للفكر السياسي والممارسة النضالية لجورج حبش الذي استخلص في شبابه المبكر العبرة الرئيسية من ثاني تجاربه السياسية بعد تجربة نادي «العروة الوثقى» في مرحلة الدراسة الجامعية..

وأقصد بذلك تجربة «كتائب الفداء العربي» الفاشلة التي قامت على العمل الصدامي المباشر للفرد بمعزل عن حركة الجماهير المعبأة والمنظمة..

لقد بقي هذا العنوان، عنوان الجماهير المعبأة والمنظمة ملازماً لفكره وممارسته في مجرى تشكل حركة القوميين العرب، إن في مرحلتها القومية الصرف، أو في مرحلة تلمسها وتبنيها للبعد الاجتماعي في النضال القومي، الذي وضع الإشتراكية إلى جانب الوحدة والتحرير.. وكذلك في مرحلة الإلتحام بالناصرية التي إعتبرت حركة القوميين العرب نفسها بمثابة حركتها الجماهيرية المنظمة في المدى العربي، مشرقاً وخليجاً بالتحديد..

■ وكان أن إنتقل هذا العنوان، عنوان الجماهير المعبأة والمنظمة بحكم الإرث والتواصل النضالي إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ليكون أحد أبرز محاور عملها وليشكل مع الكفاح المسلح في إطار برنامج التمسك بالثوابت الوطنية، أحد العوامل الرئيسية لإقامة وإدامة النفوذ السياسي لهذا التنظيم الرئيسي في صفوف الحركة الفلسطينية..

وأيضاً في بعض جوانب فكر «الحكيم» وتجربته النضالية نشير إلى الموقع المحوري الذي إحتلته الوحدة الوطنية الفلسطينية في إطار م.ت.ف، التي لم يطعن أبداً بمكانتها التمثيلية حتى في أشد مراحل معارضته لخطقيادتها المتنفذة..

■ وفي ظني ما يستحق التأمل هو جدلية التحالف والخلاف (وصولاً إلى الإفتراق المؤقت أحياناً) في الفكر السياسي لجورج حبش نظراً لما يمكن أن يستخلص منها من الزاوية التالية:
إن معارضته السياسية الحازمة لما كان يعتبره خروجاً عن الثوابت أو مساساً بها كانت تمضي بعيداً، وبعيداً جداً، لكنها – في الوقت عينه – كانت تُحجم عن الإنقسام وإلحاق الأذى بالمؤسسة الأم أي منظمة التحرير، وكانت تربأ بنفسها اللجوء لاستخدام أسلوب الإنقلاب عليها..

لقد كانت معارضته قاسية ولم ترتد يوماً قفازات مخملية، لكنها في نقطة ما من مسارها كانت تستدير لملاقاة شروط تجديد الوحدة الوطنية في إطار منظمة التحرير وتحت رايبتها..

في فكر فقيدنا الكبير إنحكمت جدلية اللقاء والإفتراق إلى سقف الوحدة، فهي المرجعية والإطار بقواسمها المشتركة وتسوياتها،

نعم تسوياتها وتنازلاتها المتبادلة.. ولعل هذا ما نحن أحوج ما نكون إليه في الطرف الصعب الذي تجتازه مسيرتنا الوطنية..

فالخلاف على استئناف العملية التفاوضية التي إفتتحها مؤتمر أنابوليس – 27/11/2007، نضعه خلف الظهر، لأن الراهن والمباشر هو المسار الفعلي للمفاوضات التي كانت الحكومة الحادية عشرة، حكومة الإنتلاف الوطني برئاسة اسماعيل هنية، قد وافقت وبملاء إرادتها، على إحالة مسؤوليتها ومسئولية إدارتها إلى اللجنة التنفيذية ورئيسها..

وباعتقادنا، أن النقطة المفصلية المطروحة على هذا الصعيد ليست الموافقة على المفاوضات من عدمها، بل الإتيافاق على شروط إستمرارها أو تعليقها، فقطعها..

فهل نقبل بمفاوضات يديرها العدو تحت النار، نار الاستيطان والتهويد والحصار والعدوان، أو.. نقطعها إلى أن ينقطع سيل العدوان والإستيطان..

وهل نقبل باستمرار مفاوضات يديرها العدو بشروطه التي تحدد مسبقاً نتائجها المتعاكسة تماماً مع حقوقنا الوطنية..

هذه هي المسألة التي تحتاج إلى رأي واحد وقبضة موحدة..

■ وكذلك الخلاف على من تؤول إليه الولاية على معبر رفح نضعه خلف الظهر لصالح الإتفاق على تلك الصيغة التي تفتح أبواب القطاع المحاصر ليس على مدينتين شمال سيناء للتبضع، بل على العالم بأسره.. والتي تفتح أبواب غزة على الضفة وأبواب الضفة على غزة.. فمؤامرة فصل الضفة عن غزة لا تقل خطورة عن فصل القطاع عن العالم..

لا بل إنها، في واقع الحال تتجاوزها خطورة، لأنها تسعى إلى استبدال مخطط تطويع القطاع البطل الذي لم ولن يركع، بمخطط مصادرة الكيانية الوطنية المستقلة على عناوين تعيد عقارب الزمن إلى ما قبل حرب الـ 67،

وهذا بدوره لن يقع بالإرادة الفلسطينية الملتقية مع الإرادة العربية..

■ إن هذه المسائل وغيرها تدرج تحت عنوان واحد هو الإنقسام الفلسطيني الذي يندر استمراره بانعكاسات شديدة السلبية على الحالة الفلسطينية والنضال الوطني عموماً..

من هنا الدعوة إلى الحوار الوطني الشامل، فمن ينشد الخلاص الوطني لا خيار أمامه سوى هذا الخيار.. وهو الخيار الذي بقى فقيدنا الكبير متمسكاً به، داعياً له.. وأمامه أحد جدران غزة ينهار بفعل ضغط الجماهير المعبأة والمنظمة.. وكله أمل وثقة بأن هذا سيكون مصير جميع الجدران والأسوار التي تحجب شمس الحرية والإستقلال عن الوطن..

فإلى شعبنا الفلسطيني نتقدم بأحر التعازي.. قبل أن نتقدم بها إلى رفاق الدرب في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وإلى منظمة التحرير..

فالقامة التاريخية السامقة وإن رحلت،

ستبقى حية بما قدمت،

فهي باقية بما زرعت ■

فهد سليمان

29/1/2008

إسماعيل هنية ... قائد لا تغيب ذكراه عن الشعب 1963-2024

[في العاصمة القطرية، الدوحة، وتلبية لنداء الدم الزكي، في تشييع القائد الوطني الكبير، رئيس المكتب السياسي لحركة المقاومة الإسلامية - حماس إسماعيل هنية، ورفيقه الوفي وسيم أبو شعبان، إجتمع قادة فصائل المقاومة والعمل الوطني الفلسطيني، تحت وطأة الحدث الجلل، الذي هز أركان العالم، وكانت له تداعياته الكبرى، وما زالت، في أكثر من مكان:]

■ بين لقائين، يفصل بينهما أكثر من ثلاثة عقود من الزمن الفلسطيني، أولهما في «مرج الزهور» - جنوب لبنان، وآخرهما في الدوحة، وبينهما لقاءات عدة، إمتدت من غزة إلى إيران، مروراً بلبنان، لم يكن يخطر ببالنا، أن الدوحة ستشهد مصابحتنا الأخيرة، بعد أن جمعنا لقاء عمل لبضعة أيام، لنعود ونلتقي، بعد أيام قليلة إلى جانب وفود غفيرة، ضمت قيادات ورجالات وشخصيات من أربع جهات الأرض، تجمعت تحت ظلال نعشه، وداعاً له إلى مثواه الأخير، شهيداً في عملية إغتيال جبانة، خططت لها ونفذتها حكومة العدو. في 31/7/2024، إغتالته يد الفاشية والغدر الإسرائيلية، يدفعها إلى ذلك حقد دفين، فقد اعتبرته هو، وما يمثل من موقع قيادي ومن قيم كفاحية، وكل من يمت إليه بصلة، عدواً لها، فاغتالت أبنائه وأحفاده وإخوانه وشقيقته، ثم إغتالته هو؛ غير أن ذلك لم يشف غليلها، فأصرت على تدمير منزله في مخيم الشاطيء، ثم استكملت حقدنا باغتيال مرافقيه السابقين في قطاع غزة، وكأن إسرائيل تحاول أن تنتقم منه، بأكثر الأساليب وحشية وهمجية.

■ باستشهاد القائد الوطني الكبير إسماعيل هنية، رئيس المكتب السياسي لحركة المقاومة الإسلامية - حماس، نكون قد فقدنا أحاً وصديقاً ورفيقاً ومجاهداً صلباً، أفنى زهرة العمر في خدمة شعبه وقضيته وحقوقه الوطنية المشروعة، كما كرّسها في خدمة حركته، وكان شديد الإخلاص والتواضع في أدائه السياسي النضالي، وصار رمزاً من أهم رموز شعبنا، وحركته الوطنية. إنسم بروح الحوار، والمرونة التكتيكية على خلفية صلابة مبدئية متأصلة، يضع مصالح شعبه في مقدمة إهتماماته، قدم فلذات أكباده وأقرباءه، شهداء في خضم النضال والصمود في قطاع غزة، في سياق حرب الإبادة الجماعية لدولة الإحتلال الفاشي، وما استهداف العدو للقاء البارز أبو العبد في مقره بالعاصمة الإيرانية طهران، إلا محاولة للنيل من معنويات شعبنا وصموده وصلابته، غير أن المباديء التي زرعتها الراحل والشهيد الكبير، في صفوف أبنائه شعبنا الفلسطيني، جعلت من استشهاده، رغم الخسارة التي لا تعوض، محفزاً تاريخياً للإرتقاء بأساليب النضال والمقاومة، وتصعيد الكفاح بكل أشكاله، لا من أجل أن يدفع العدو الثمن فحسب، وهو حتماً دفع وسيدفع الثمن غالياً، بل ولتحقيق ما كان يصبو القائد الراحل إليه: تعزيز الوحدة الوطنية، واستعادة الوحدة الداخلية، وتصعيد المقاومة، وطرد الإحتلال، وتحرير الأرض، وإقامة الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس، وعودة اللاجئين إلى الديار والممتلكات.

■ إن استشهاد القائد الوطني الكبير أبو العبد، يؤكد مرة أخرى أن معركتنا مع العدو، هي حرب المصير، حرب الحاضر والمستقبل، يخوضها شعبنا، وقواه السياسية، ومقاومته الباسلة في كل مكان، وبكل الأشكال والأساليب، وأن لا تراجع عن أهدافنا التي تغمست بالدم الطاهر لشهداء شعبنا، وأن لا مساومة على أهداف شعبنا وحقوقه، وإذا كان العدو يريدنا حرباً وجودية، فإن شعبنا الذي «نما وتطور على أرض الرسالات السماوية إلى البشر، عبر علاقة عضوية، لا انفصام فيها ولا انقطاع بينه وبين الأرض والتاريخ»؛ شعبنا على إستعداد كامل لأن يخوض هذه المعركة حتى فصلها الأخير، الذي تُكسر فيه شوكة الاحتلال والعدوان، وشوكة المشروع الصهيوني، وتحقق كامل أهدافنا في الحرية والإستقلال، وتنتصر فيها سريتنا بحقيقتها العابرة للزمان.

■ إغتيال إسماعيل هنية، لم يشكل نصراً مطمئناً لإسرائيل، أو للولايات المتحدة، بل على العكس من ذلك، أنتج حالة من القلق العميق في أوساطهما، وتسبب لهما بإرباك شديد. أدركت إسرائيل كما الولايات المتحدة، حجم الزلزال الذي تسببت في إحداثه، وحجم الهزات الارتدادية التي سوف تصارع ضدها. تُرى، أي رجل هذا، الذي تحسب حسابه واشنطن، كما تل أبيب، شهيداً، أكثر مما كانت تخافه حياً وقائداً. هذه واحدة من أهم سمات هذا الرجل، حيثما يمر، يترك بصماته واضحة المعالم، في النفوس، والقلوب، التي تدانت مفاعيلها، مهما تباعدت وقائعها. هذه سمات الرجال الذين تتحلى شخصياتهم بمظاهر الهدوء وعمق الثورة معاً، الشجاعة والإقدام، والعقل في آن.

■ عندما إلتقيناه في الدوحة، لم نكن ندري أنه لقاء ما بعده لقاء، عقدنا معه ثلاث جولات حوارية، إمتدت لساعات، تناولنا فيها بعمق العديد من القضايا التي تشغل بال الحالة الوطنية، كانت الصراحة والوضوح إحدى أهم علاماتها، ومع ذلك شعرنا أننا لم ننه ما يتوجب أن نعمله معاً، فأنحكما لأولويات حالت دون تناول عديد القضايا التي كانت تجول في الذهن، فأجلنا بحثها لضيق الوقت، رغم أنه إمتد طويلاً. لقد كانت لفقيتنا الكبير القدرة، وكان لديه الإستعداد للإنتفاخ على الحوار، والإستماع إلى وجهات النظر بهدوء مهما تخالفت، ومناقشتها بكل أريحية مهما تباعدت.

■ كنا قد عرفناه في محطات سابقة، فلاحظنا أن الرجل بقي على وفائه لتواضعه الذي اتسم به منذ أن أطل على الرأي العام في خدمة القضية الوطنية. وقبل أن يغادر قطر، أبقى إلا أن يزورنا في مقر إقامتنا، بعد منتصف الليل، ليودعنا، وحملنا التحيات إلى الإخوة والرفاق، وبتجديد العهد على الوفاء، وبدعوات جديدة، للقاءات نستكمل فيها ما بقي في جعبتنا من هموم وطنية.

الأخ القائد أبو العبد ...

ودعناك إلى مثواك الأخير في الدوحة، لكنك، أيها الأخ الكريم، واحد من القادة الذين لا تغيب ذكراهم عن الشعب، مهما إمتدت الأيام ■

فهد سليمان

25/8/2024

أبو علي مصطفى ... عاد إلى الوطن مقاوماً 1938-2001

■ عندما عبر الحدود إلى الضفة الفلسطينية تحت الاحتلال، لم يدخلها أبو علي مصطفى مساوماً، بل عاد إليها مقاوماً.. دخل مقاوماً من أجل الحقوق الوطنية، ولم يدخل مساوماً عليها.. دخل مقاوماً من أجل الدولة الفلسطينية المستقلة كاملة السيادة وعاصمتها القدس، ومن أجل حق العودة إلى الديار والممتلكات.. ولم يدخلها مساوماً على دولة منقوصة المساحة والسيادة، وبلا قدس عاصمة أبدية لهذه الدولة، وبلا عودة لللاجئين..

القائد أبو علي مصطفى كان آخر من يجهل مخاطر إنتقاله من جغرافيا سياسية إلى أخرى.. كان يدرك في واقع الحال هذه المخاطر.. ولكنه لم يتراجع عن قراره، وكان كما عهدناه على إمتداد مسيرة نضالية تجاوزت أربعة عقود من زمن القضية الوطنية، صلباً، مبدئياً، ثابتاً وصاحب رؤية.. بقي متمسكاً برؤيته وبقدره، لأنه كان يدرك الضرورة الوطنية والكفاحية والحزبية لهذا القرار.

■ إنطلاقاً من الموقع الذي يحتله الرجل، لا بد من الاعتراف بكل واقعية، وبكل أسف، أن قوات الاحتلال بنجاحها في إغتيال زعيم الجبهة الشعبية، الرفيق أبو علي مصطفى في مكتبه في رام الله، تكون قد حققت فوزاً، ووجهت إلى الإنتفاضة والمقاومة وعموم الحركة الوطنية الفلسطينية ضربة موجعة؛ فالرفيق أبو علي مصطفى قائد مجرب وصاحب خبرة عميقة في العمل السياسي والعسكري والتنظيمي، وصاحب قدرة مميزة على التحليل واتخاذ القرارات وإدارة العمل بكل إتجاهاته، وعلى أكثر من جبهة.

■ هذه هي مواصفات القائد الناجح المشغول دوماً، في موقعه القيادي بكيفية أداء الواجبات بأنجح الطرق، وأفضل الأساليب، وأقلها كلفة وخسارة، وأكثرها قدرة على تحقيق الأهداف وتلبية طموحات الشارع الفلسطيني وأمنيته، والإستجابة لها أيّاً كانت تعقيدات الوضع، وأياً كانت الضغوطات والصعوبات والتحديات والمخاطر.

■ إن التيار السياسي المستهدف بعملية إغتيال الرفيق أبو علي مصطفى، مدعو لاستيعاب الدرس، وإعادة تنظيم صفوفه بما يتناسب مع النقلة النوعية للحالة العدوانية الإسرائيلية، حرصاً من هذا التيار على قواه الذاتية ودوره في الحركة الوطنية، وحتى يكون لتهديداته بالرد مصداقيتها وروافعها الضرورية■

■■■

■ واليوم، إذ نستدعي ذكرى إستشهاد هذا القائد الوطني الكبير، لا بد وأن نقف أمام معنى الشهادة، لقائد بهذا المستوى تقدم الصفوف رمزاً وطنياً، ورمزاً يساريّاً في زمن يسعى إلى إختزال الحركة الوطنية إلى يمين ويمين.. ومعنى الشهادة في هذا السياق هو قرن القول بالعمل، والموقف المرسل بالممارسة المحققة، ودائماً تحت راية الإخلاص بلا حدود لقضية الشعب والوطن، لقضية الشعب الموحد في وطن موحد بقيادة حركة وطنية موحدة.

وما نشهده في هذه الأيام يقف على النقيض من كل هذا، فالإنقسام القائم لم يُعدّ يقتصر على تنافر الرؤى السياسية بعيداً عن الرؤية الوطنية المشتركة، كما بلورتها وثيقة الوفاق الوطني في حزيران/ يونيو 2006، بل بات يمتد إلى الجغرافيا والبنية المؤسسية معاً، أي السلطة الفلسطينية التي إنقسمت على نفسها بين الضفة والقطاع، حكومة ووزارات، أجهزة ومؤسسات.. هذا فضلاً عما يلوح به البعض بأن يصل الإنقسام إلى مستوى رئاسة السلطة التي تضحي رئاستين، لا بل يمضي هذا البعض إلى أبعد من ذلك؛ لجهة التلويح باجتراح مرجعية أخرى بجانب م.ت.ف.

■ ليس ثمة مخرج من هذا المأزق الوطني العميق إلا بالحوار الوطني الشامل من ألفه إلى يائه، فالحوارات الثنائية والإتفاقات الثنائية، كما علّمت التجربة الفاشلة لاتفاق مكة في 8 شباط/ فبراير 2007، هي إتفاقات محاصصة ثنائية، لأنها محكومة بمنطق الصراع على السلطة، ومؤسسات السلطة، وموازنات السلطة، ووظائف السلطة، وامتيازات السلطة...

الحوار الثنائي وما يتمخض عنه من إتفاقات ينشيء ازدواج السلطة.. وهو حال صراع محتدم، حال إنتقالية رجراجة وقلقة، تقود - عاجلاً أم آجلاً - إلى حسم مسألة السلطة لصالح أحد طرفيها، فكان أن حُسمت بالطريقة التي شهدناها بغزة في 14/6/2007.

■ هذا ما يُمكن أن تقود إليه صيغة الحوار الثنائي التي يتبناها البعض، وإن بأسلوب المرحلة الأولى التي تقود إلى الحوار الأوسع فيما بعد، بدعوى أن المشاكل قائمة بين التنظيمين اللذين يمكن بمقاليدهما السلطة.. ونحن نقول، إن المشاكل الرئيسية قائمة بالفعل بين هذين التنظيمين، لكنها أيضاً قائمة بين كل منهما وسائر القوى السياسية، فكيف سيستقيم البحث - على سبيل المثال - بإعادة بناء الأجهزة الأمنية على أسس ومعايير وطنية ومهنية بعيداً عن التوظيف السياسي، ونحن نرى بأن من يرفع هذا الشعار، إنما يتصرف على غرار من سبقه.

■ إن هذا ما يجعلنا نجعلنا نتمسك بالحوار الوطني الشامل من ألفه إلى يائه كما ذكرنا؛ وهو الحوار الذي لن يكون له مغزى، إذا لم يلزم نفسه بسقف زمني لا يتعدى الشهور من أجل إجراء إنتخابات رئاسية وتشريعية وكذلك للمجلس الوطني.. ومن هذا المنطلق رحبنا بدعوة القاهرة للشروع بالحوار، والأحرى باستكمالها، ابتداءً من مطلع الأسبوع الثالث لشهر آب/ أغسطس 2008، ونرى بأن متطلبات إنجاح هذا الحوار تقوم على وقف فوري للحملات الإعلامية المتبادلة، وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين من الجانبين، وتحريم الإعتقال على خلفية سياسية، موقفاً وإنتماءً.

■ في هذا السياق، فإننا ندعو إلى موقف فلسطيني حاسم يضع واشنطن، والمجتمع الدولي بمكوناته كافة، أمام مسؤوليتيهما من خلال وقف المفاوضات الجارية، وربط استئنافها بتجميد الاستيطان ووضع حد للعدوان والحصار المفروض على الشعب الفلسطيني، وبخاصة في قطاع غزة، وإطلاق سراح الأسرى والمعتقلين في سجون الاحتلال، وذلك كخطوة على طريق تصويب مسار العملية التفاوضية وإعادة إرسائها على قاعدة تنفيذ قرارات الشرعية الدولية، في إطار مؤتمر دولي كامل الصلاحيات، ينعقد تحت مظلة الأمم المتحدة

وبرعاية دولية جماعية تؤمنها الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن، بحضور كافة أطراف الصراع، بديلاً عن صيغة المفاوضات الثنائية التي تنفرد الولايات المتحدة برعايتها، إن لم يكن باحتكار مرجعيتها. ومن هنا أخيراً، نجدد التحذير من استمرار التفرد بالقرار التفاوضي والتعتيم على مجريات العملية التفاوضية. ونؤكد على ضرورة تشكيل لجنة وطنية عليا لإدارة المفاوضات وبمرجعية اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، بديلاً من المطبخ الضيق الذي لا يخضع لأية رقابة أو مساءلة■



■ وبهذا نختم مجددین العهد أمام تلك القائمة الوطنية الشامخة التي مثّلها أبو علي مصطفى في حياته الزاخرة بالعطاء النضالي المتواصل في قيادة العمل الوطني من منصة المسؤوليات الشاملة، وصولاً إلى الأمانة العامة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، من موقعها الوطني واليساري المتقدم في الحركة الفلسطينية وفي م.ت.ف، وفي حركة التحرر الوطني العربية عموماً؛ ونختم مجددین العهد بأن مسيرة شعبنا الكفاحية مستمرة حتى إنجاز كامل الحقوق الوطنية؛ وما زرعه أيها القائد الوطني الكبير على إمتداد عقود نضالك، تحول وسيتحول تبعاً حصاداً وطنياً وفيراً بعد إستشهادك؛ لقد عدت أخيراً إلى عرابية، ليرتاح الجسد في هجته الأخيرة، فيا تربة عرابية كوني حنونة على جسده المتعب، بقدر ما كان حنوناً على همومنا الوطنية■

معتصم حمادة

29/8/2008

بسام الشكعة ... رحل عنا، لكنه لم يغادرنا 1930-2019

■ عندما تقاطرت عشرات الألوف من أبناء شعبنا، من أنحاء الضفة الفلسطينية إلى مدينة نابلس، لمرافقته، مكرماً، معززاً، جليلاً، مهيباً، إلى مثواه الأخير ...
وعندما وقفت جماهير شعبنا في مخيمات الشتات، والمهاجر، وقفة وفاء، وصمت صارخ، في لحظات وداعه،
كان التاريخ ينحني أمام هامته العملاقة، ويسجل اسمه، بأحرف الفخر والإعتزاز في سجل رجال فلسطين الكبار.
بسام الشكعة، جبل نار من جبال بلادي، عاش قضية شعبه وهمومه في مراحلها ومحطاتها المختلفة.

■ **واكب النهوض والمدة القومي العربي العظيم**، في زمن الكبير جمال عبد الناصر، وكان واحداً من صانعي هذا النهوض، ودفع ثمنه أحكاماً بالسجن قبل الإجتياح الإسرائيلي للضفة؛ فقد رفع لواء الوحدة العربية، ولواء القضية الفلسطينية وآمن إيماناً عميقاً بأن قضية فلسطين هي قضية الشعوب العربية كافة، وأن سلاح الوحدة القومية العربية هو الأكثر فعالية لفرض الحصار على الكيان الإسرائيلي واسترداد الأرض والحقوق القومية لشعب فلسطين، ووضع حد لسياسة الظلم والقهر التي يتعرض لها اللاجئون الفلسطينيون في أصقاع الأرض.

■ **واكب النهوض الوطني الثوري الكبير**، بعد هزيمة حزيران، وكان من صناع الرد الثوري على الهزيمة، ومن رجالات منظمة التحرير الفلسطينية، في المواجهة الميدانية للإحتلال في نابلس وفي أنحاء الضفة الفلسطينية.

وسجل، إلى جانب إخوان كبار، إنتصاراً لمنظمة التحرير الفلسطينية والبرنامج الوطني المرحلي، الذي اجترحته العبقريّة السياسية لشعبنا، وصاغته وتحملت المسؤولية التاريخية في إعلانه على الملأ الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، حين فاز برئاسة بلدية نابلس عام 1976، إلى جانب إبراهيم الطويل (البيرة) وكريم خلف (رام الله) وفهد القواسمي (الخليل). كما كان من مؤسسي «لجنة التوجيه الوطني»، الذراع السياسي والوطني، لمنظمة التحرير الفلسطينية الإنتلافية في ظل الإحتلال.

■ **لقد أدرك رفيق درب الطويل والصدّيق «أبو نضال» بحسه الوطني الصادق**، وبواقعيته الثورية، أن الوحدة الوطنية لقوانا السياسية وجماهير شعبنا، في إطار م.ت.ف وبرنامجها السياسي المرحلي الثوري الواقعي، هي الطريق إلى الخلاص من الإحتلال، على طريق إنجاز الحل الديمقراطي الموحد الجديد للقضية الوطنية، ببناء دولة فلسطين على كامل التراب الوطني.

■ **كان وجود مناضل صلب ومتماسك ونقي وطاهر اليد**، كبسام الشكعة، عبئاً على الإحتلال، فلجأ عبر عصابات الإستعمار الإستيطاني إلى محاولة اغتياله، لكنه نجا، رغم أنه دفع ساقيه ثمناً لخلاصه. تلك الحادثة، زادت صلابته وزادته قوة، إستهدفوا ساقيه، كما قال لنا، لكنهم عجزوا عن استهداف إرادته. ونسجل له عندما نقل إلى لندن لتلقي العلاج، رفض أن تقدم الحكومة البريطانية مصاريف علاجه، مشترطاً عليها الإعتذار أولاً لشعب فلسطين عن دورها في الجريمة النكراء التي ارتكبتها، في وعد بلفور، والإسهام في بناء الكيان الصهيوني إبان مرحلة الإنتداب وما بعده. وأصرّ على العودة إلى عمان، حيث هناك تابع الأطباء علاجه.

وعندما التقينا معاً، في مواجهة أوسلو، كان بليغاً حين قال إن الذين وقعوا أوسلو تخلوا عن حقوق شعبهم، مقابل الحفاظ على مصالحهم الذاتية.

إستضافته في دارنا، بحضور الراحلين الكبيرين خالد الفاهوم، وجورج حبش، وكان لقاء ما زالت وقائعه التاريخية حاضرة في ذاكرتي، وفي أوراقي. إمتد اللقاء ساعات، كانت واحدة من أهم ساعات يومياتنا... طيف سيرة ومسيرة.

■ **أبو نضال، علم من أعلام بلادي؛**

وصوت صارخ في سماء الحرية والخلاص الوطني، والقومي وتقرير المصير؛

إبن بار لجبل النار، ولمدينة نابلس، مدينة الشهداء والثوار؛

رحل عنا في 22 تموز/ يوليو 2019،

لكنه لم يغادرنا، فهو بيننا باقي ... ولن ننساه.

هو واحد من العناوين الكبرى التي تزين تاريخنا الحافل بالنضالات والتضحيات، وحافل ببطولات الشهداء والمعارك الملحمية لشعبنا، إلى أن يحمل الإحتلال عصاه، ويرحل عن كل شبر من أرض دولة فلسطين،

وعاصمتها القدس، ويشق أهلنا اللاجئين طريقهم في العودة إلى ديارهم وممتلكاتهم التي هجروا منها منذ العام 1948 ■

نايف حواتمة

6/10/2019

بسام الشكعة ... ملهم جيلنا في التضحية والنضال 1930-2019

• كنت في بيروت في الثاني من حزيران/ يونيو عام 1980، حين صُعقنا، أبناء الشعبين الفلسطيني واللبناني والأمة العربية بخبر انفجار عبوة في سيارة رئيس بلدية نابلس المنتخب، المناضل الوطني والقومي المعروف بسام الشكعة، والتي أدت إلى بتر ساقيه؛ لا أدري كيف تداعى البشر لحظة سماع الخبر إلى منطقة الجامعة العربية في بيروت، وكانت مركز فعاليات الحركتين الوطنيتين الفلسطينية واللبنانية، في الوهلة الأولى خَيَّم الوجوم والحزن والصمت على التجمع البشري الهائل، إخترقه صوت المناضلة الراحلة عصام عبد الهادي، ابنة مدينة نابلس التي كانت في مهمة للإتحاد العام للمرأة الفلسطينية في لبنان من موقعها كرئيسة للاتحاد، إذ بدأت بصوتٍ جهوري قوي تنشد فينا «موطني ... موطني» ما لبث أن التحق بها الجمع الواجم والحزين ينشد معها النشيد الوطني والقومي للشاعر إبراهيم طوقان والذي نحفظه عن ظهر قلب «موطني ... موطني ... الجلال والجمال والسناء والبهاء في رباك ... في رباك...»، تحول بعدها المشهد الحزين إلى هتاف جماعي متواصل كان أقرب إلى الصراخ «بالروح بالدم نفديك يا بسام».

• إرتبط اسم المناضل الكبير بسام الشكعة عند أبناء جيلنا، ذكوراً وإناثاً، بنضاله المتواصل ضد الاستيطان، الذي نَمَّ عن وعي عميق ومبكر ورؤية واضحة لمخاطر الاستيطان، التي نشهدها اليوم، باعتباره الركيزة الأساس للمشروع الصهيوني الاستعماري، وعن سعيه وحرصه الشديد على التمسك بالأرض والدعوة لزراعتها وجلب الحياة لها حفاظاً عليها من المصادرة، الأمر الذي تشهد له فيها أراضي الأغوار ودير شرف وأراضي خلة السراويل في قرية حوسان وسكة الحجاز في نابلس، والمسيرة الجماهيرية الكبرى التي قادها عام 1979 ضد بناء مستوطنة «ألون موريه» شرق نابلس، المسيرة التي وصفها البعض بأنها «غطت الشمس» تعبيراً عن كبرها وهول رسالتها، رسالتها التي وصلت للعدو وأرعبته وابتدأ بموجبه يخطط ويعد لاغتيال رمز النضال ضد الاستيطان واستهداف ساقيه التي سارت به في مقدمة الجماهير الغاضبة ضد إقامة مستوطنة «ألون موريه».

• بعد عودتي للوطن، وحين كنا نلتقي بالمناضل الكبير بسام الشكعة في بيته وبحضور أسرته المناضلة والرائعة، وفي مناسبات وطنية واجتماعية وإنسانية مختلفة، لم يغادر أبو نضال الحديث وبإسهاب عن الأرض ومخاطر الاستيطان، وعن سيرة التحدي والتصدي للحاكم العسكري وجنود الاحتلال، ورفض المهادنة أمام أي حدث من موقع التمسك الصارم بالحقوق والحرص على إشعار العدو بأنه معتدي ولا حق له عندنا، ولا تنازل أو مفاوضات معه حول أي قضية حقوقية، كان حديثه المتكرر معنا أقرب إلى الوصية لنا وللأجيال القادمة، وإلى مواصلة سرد درس في حكاية وطنية عن الصمود والمقاومة.

• أخيراً... إن جاز لي الحديث عن ملهمين للنضال لأبناء جيلنا، بسام الشكعة في مقدمة الملهمين للنضال الجماهيري ضد الاستيطان وفي التمسك الثابت بالحقوق وعدم الرضوخ مهما كانت التضحيات.

نعتز أبا نضال بأننا عايشناك وعرفناك واستمعنا إليك ■

ماجدة المصري
6/10/2016

محمد الضيف.. «ضيفاً» وطأتها، فاعلاً،
قبل أن تسمو في عليائها، خالداً
1965-2024

(1)

■ ثمة قادة يلمع نجمهم في حياتهم، لكنه يأفل بعد المغيب،
وآخرون لا يكافئون على دورهم إلا بعد الرحيل،
وثمة فئة ثالثة من القادة، يشغلون العدو في حياتهم،
وبعد رحيلهم، سواء بسواء،
ومن هؤلاء محمد الضيف،

الذي كان من أبرز صانعي معادلات المقاومة في فلسطين،
أي تلك المعادلات المولّدة للحقائق الصلبة،
التي ما زالت تداعياتها – حتى يومنا – تنداح في كل الإتجاهات،
وأي إثبات على هذا أكثر مما شهدناه،
من صمود لشعب، وانتصار لمقاومة
على وهج «طوفان الأقصى»،
وما أدراك ما «الطوفان»،
إن لم يكن محطة فاصلة على طريق الإجهاز على إحتلال تأبد،
بناءً لمشروع الحرية والإستقلال؛
وأي تكريم للراحل الكبير في ذكرى إستشهاده،
أبهي وأهم من تزامن هذه الذكرى مع تسارع وقائع حرب تحريرية،
ما زالت رحاها تدور في أكثر من مكان على أرضنا الطاهرة ■

(2)

■ ما عشناه على إمتداد عام ونيف هو حدث جلل،
كانت حرباً تحريرية بأبعاد إقليمية،
هكذا كانت عندما اندلعت،
واستمرت على هذا الحال بعد أن إتسعت،
ولا أفق مرئياً حتى الآن، حتى بعد وقف إطلاق النار،
يُنبيء بحدودها،
قبل أن تدرك أهدافها.

■ هي الحرب الإقليمية الأولى،
بعد حرب العبور إلى سيناء والجولان عام 1973،
ما لا ينتقص البتة من أهمية أي من غيرها من الحروب،
التي إزدحمت بها العقود الخمسة الفاصلة
ما بين تشرينيني 1973 و 2023،
وما أسفرَ عن بعضها من نتائج وتداعيات،
كما هو حال حربي 1982 و 2006،
إنما يُوْشر إلى ما يمكن أن تفتح عليه حرب «الطوفان» من آفاق،
تُقرّب الشعب الفلسطيني من إنجاز حقوقه الوطنية،
وتعيد صياغة التوازنات وعلاقات القوى في أكثر من مكان،
لجهة كسر العدوانية الإسرائيلية ■

(3)

■ جدلية الحرب بتفاعلها مع فشل إسرائيل في تحقيق أهدافها المعلنة،
وبالعبء الذي تلقّيه على عاتق واشنطن،
المتقلبة أصلاً باستحقاقات خارجية – ليس أقلها –
مواجهة صعود الصين من جهة،
والخسارة الوشيكة للحرب في أوكرانيا من جهة أخرى.

إن كل هذا يدفع بالأمر، نحو إحتدام حدة مواجهة
لم يعد ميدانها - بعد الآن -
يقتصر على الضفة والقطاع.

■ إن اتساع دائرة المناهضة للإحتلال
وزيادة المنخرطين أو المساهمين فيها في العالم بأسره،
إلى جانب الشعب الفلسطيني،
توسع في الوقت عينه جبهة الصدام مع محور واشنطن - تل أبيب،
المعادي بثبات لشعوب المنطقة وتطلعاتها التحررية.
أليس هذا ما سعى إليه القائد محمد الضيف
وأفنى زهرة العمر في سبيله ؟
أليس هذا ما ارتقى بمكانته إلى مصاف الهامات العالية،
في حركة التحرر الوطني الفلسطيني ■

(4)

■ نقف بكل إجلال وتقدير أمام ذكرى
قائد تفاعلت مواصفاته الشخصية،
فطرة وخبرة، وفكراً متقدماً،
مع الأهداف العليا لقضيتنا الوطنية،
فجعلت منه رائداً مبادراً في إجتراح إستراتيجية للتحرر الوطني،
على طريق النصر المؤزر، لا محالة.

■ هذا ما يؤكد مشهد عدو يودع صاغراً
عاماً مترعاً بوقائع الخيبة والهزيمة،
في الوقت الذي تستقبل فيه فلسطين،
المثخنة بالجراح، إنما المفعمة بالإرادة الصلبة،
وإشرافه الأمل، عامماً مقبلاً، ينضح بانتصار الحق والحقيقة،
الحقيقة التي تقول:
في التحرر الوطني يكمن خلاص الشعوب.

■ في ذكرى إستشهادك
أيها القائد المقدام، نقول:
«ضيفاً» وطأتها تلك الأرض المقدسة، فاعلاً،
قبل أن تسمو في عليائها خالداً ■

فهد سليمان
3/2/2025

الفصل الثاني

قادة من حركة التحرر الوطني

- كمال جنبلاط
- محمد بنسعيد
- أنطون سعادة
- فرحات حشّاد
- أحمد نبيل الهلالي

كمال جنبلاط كان وطنياً عظيماً ... كان ديمقراطياً حقاً 1917-1977

■ هذا الوطني الأصل الذي تنغرس رجلاه عميقاً في تراب الوطن، وترتفع قامته إلى سحب سمائه. كان عميق الإيمان بقضية الديمقراطية.

والإيمان الحق بالديمقراطية، يعني الالتزام الثابت بقضايا الحرية والتحرر والتقدم، وبضرورة النضال المتواصل مع كل المكافحين، من أجل إنتصار كل ما هو تقدمي وديمقراطي. لقد كانت ثقافته وآراؤه الفلسفية التقدمية، هي التي تعينه على الإستجابة لجميع المضامين الثورية التي تتولد عن الإيمان بقضية الديمقراطية والنضال في سبيل سيادتها.

لا شك أن الأصالة الوطنية والديمقراطية وجهان لقضية واحدة، لكن وحدتهما العظيمة هي في قوة وعظمة كل المناضلين من أجلها، شعوباً وأحزاباً وتجمعات وأفراداً، وهي سر تجدد قوتهم النضالية وإستمراريتها، ذلك لأنهم يضعون بذلك أنفسهم في سياق العملية التاريخية، ويلعبون دورهم الإيجابي الثوري في مسيرتها الصاعدة.

■ سليل عائلة عربية حكمت الجبل، وزعيم إحدى أولى الطوائف التي استوطنته، عائلة ورثت، وواصلت التاريخ الوطني النضالي لإحدى المجموعات البشرية الرئيسية التي أسست وساهمت في صنع تاريخ لبنان الحديث.

لقد ورث جنبلاط زعامة العائلة والطائفة، وتاريخهما، لكنه متسلحاً بوحدة الإيمان بالوطنية والديمقراطية الحقّة، إنعطف بوعي، وبخيار حاسم، منسلخاً عن تقاليد حياة وحكم الأمراء، نحو حياة وتقاليد ومصالح عامية الطائفة وقاعدتها البشرية، ومن البديهي أنها هي ذاتها، حياة ومصالح عامية جماهير الطوائف الشقيقة الأخرى.

لم ينسلخ جنبلاط عن الطائفة كفرد مثقف حالم، ليلعن الطائفية، ويتغنى بالعلمانية والديمقراطية والتقدم، بل سلك طريق النضال وبقوة لكي يمزق الأقمطة الطائفية التي كان يراد له أن يتلفح بها ويبقى سجينها، وولج طريق الديمقراطية الرحب والمنير.

■ لقد إنتقل بقاعدته الإجتماعية، نحو إنتماء وطني، نحو إنفتاح ديمقراطي، ونحو معانقة الآخر بدون إستثناء، من أجل التعايش الديمقراطي ووحدة لبنان الشعب والوطن، من أجل مصالح عاميات جميع الطوائف التي تعاني من التخلف والحرمان، وإن كان التخلف يتخذ له أشكالاً متباينة، ... ووضعها متعايشة على طريق الديمقراطية والتقدم.

ولأنه وطني ديمقراطي، كان عليه أن يكسر أسوار دائرة العزلة اللبنانية وتجاوز حدودها، للبحث عن مصالح شعب لبنان وتقدمه في المحيط العربي وحركته القومية التحررية، وبدون الخضوع لدائرة أسوار هذا المحيط، أطل بعيداً، وعانق العالم الخارجي الواسع، عالم التحرر والتقدم والحضارة.

■ هكذا أصبحت ضرورات دوره الوطني اللبناني، تلزمه بأن يكون أحد أبرز رواد الديمقراطية والتقدم في المنطقة العربية، ومن مواقع دوره الأخير، إكتسب إحترام وصداقة كل قوى الحرية والتقدم في العالم، وتبوأ موقع المناضل من أجل قضاياها ذاتها، والتي هي قضايا كل الوطنيين والتقدميين اللبنانيين والعرب.

إن إصالة وطنيته وعمق ديمقراطيته، فرضتا عليه التصدي لدوره العربي التقدمي والديمقراطي، وإنحيازه لقوى التحرر والتقدم في العالم، ومن خلال أبعاد هذا الدور، كان موقفه إتجاه قضية الشعب الفلسطيني العادلة ونضاله من أجل حقوقه المشروعة وتقرير المصير ثابتاً لا يتزعزع.

■ على إمتداد السنوات السبع الأخيرة، كان عليه أن يعمل لتكريس حقيقتين أساسيتين الأولى هي وحدة مصالح الشعب اللبناني الوطنية، بكل طوائفه وطبقاته وفئاته؛ وثانياً وحدتها مع قضية الشعب الفلسطيني، ونضاله العادل ضد إسرائيل العدو الغاصب، والإمبريالية.

وعلى إمتداد محنة العامين الأخيرين - 1975/1976، كانت هذه الحقائق ماثلة وتتأكد في كل شوط من أشواط الصراع والمحنة، وفي كل حلقة من حلقاتهما، وحدة مصلحة كل اللبنانيين أولاً، وعلاقتها العضوية مع قضية الشعب الفلسطيني ونضاله.

من هذه المنطلقات المبدئية، وقف بوجه المغريات والضغوط، وتصدى كالطود الشامخ لكل الترغيبات الرخيصة ولكل الترحيبات مهما كانت، لكن الحقائق البديهية هذه، كانت تزعج الكثيرين، ودونها الصعاب الجسام (!) وكان الجواب بديهياً وبسيطاً كالحقيقة، وهو جواب كل وطني أصيل، وديمقراطي حق، فلا خيار جديد، لقد إختار منذ زمن بعيد، وهو مستعد لتقديم الثمن مهما كان مرتفعاً. كل توازن سياسي لا يعترف بتأييد كفاح الشعب الفلسطيني ومصلحه، وبالتالي مصالح الشعب اللبناني، لا يمكن أن يدوم.

■ إن الدور الذي لعبه هذا الزعيم الوطني في تاريخ نضال الحركة الوطنية والتقدمية اللبنانية، خاصة في السنوات الخمس عشرة الأخيرة، هو دور بارز ومميز، وقد إتخذ أبعاداً وتأثيرات غير عادية بالقياس إلى الزعامات الوطنية الكبيرة في تاريخ حركات تحرر الشعوب.

صحيح أن قوى التحرر والتقدم ناضلت بثبات ونجاح، قبل إنخراط كمال جنبلاط في حركتها التاريخية، ومساهمة الفعالة فيها، وستبقى تواصل كفاحها بعده، لكن دور جنبلاط كان مميزاً ضمن هذه الصيرورة. لقد جعلها جنبلاط تزداد قوة وحجماً بدوره المميز، تماماً كما كبر هو ودوره من خلالها، وكان التأثير المتبادل غاية في الخصب والعطاء.

وصحيح أيضاً أنه ابن مرحلته التاريخية ونتائجها، ومن طينتها، لكن ما هو ثابت أن دوره كمناضل يعيش قضيته الوطنية بكليتها، جعله يترك بصماته عميقة على مسار المرحلة برمتها، تلك البصمات والتأثيرات الإيجابية التي سيبقى فعلها مستمراً، ما دامت معضلات النضال ذاتها قائمة، وما دام طابع المرحلة التاريخية مستمراً.

لقد كان مناضلاً صلباً، شديد الحساسية السياسية للتغيرات والتطورات الظاهرة والكامنة، التي تجري من حوله، عميق الوعي للتناقضات وأبعادها، كان قائداً قادراً على خوض النضال وقيادته وسط الأمواج العاتية المتلاطمة، كان علماً ... كان مناراً ... كان صارية المسيرة.

■ ... وسقط المناضل جنبلاط، وهو يحمل المشعل والسيف يحمي أحدهما بالآخر، من أجل لبنان، كل لبنان، الوطن والشعب.

ألم يكتب صباح إستشهاده البيان «الوصية»، الذي يدعو فيه إلى وحدة اللبنانيين، كل اللبنانيين الوطنيين لتجاوز المحنة، ولوضع أسس الجبهة الوطنية العريضة، وفي سبيل القضية الوطنية الواحدة؟ لقد ترك القائد الوطني فراغاً، لكنه ترك أيضاً مبادئ وتقاليد نضالية، وطنية ديمقراطية تاريخية، ترك وراءه حركة وطنية ديمقراطية تاريخية، ومناضليها لرفاق طريقه.

وجاء الجواب بليغاً في أربعينته، فهذا الحشد الوطني الكبير، هذا المعين المتدفق الذي لا ينضب من الوطنيين وجنود الديمقراطية والتقدم، جاء مجدداً العهد ومؤكداً البيعة لرفاق مسيرة جنبلاط لحركتهم الوطنية والتقدمية. هذا الواقع، هذا الرد الشعبي، هو الذي يعوّض كل فراغ مؤقت يمكن أن يحصل بغياب قائد وطني كبير، وهذا التضامن الواسع والفعل من شعوب العالم، هو الذي يساعد على تجاوز بعض الصعاب.

أما رد الوطنيين الديمقراطيين اللبنانيين على رحيل القائد جنبلاط، وتكريمهم له، وعهدهم إليه، فقد كان واضحاً ومحددأ تماماً: أن يقووا أحزابهم وحركتهم الديمقراطية، ويوسعوا جبهتهم الوطنية، ويعمقوا تحالفهم مع قوى التقدم والتحرر في العالم ■

سعيد جواد

9/5/1977

كمال جنبلاط .. سيبقى فينا وننتصر 1917-1977

■ في ربيع الزعتر وجراحات الملح، رأيت صورته في كل مكان تُنبت أقحواناً في سهول جنوبية وجبال شماء، تنبض مناجل تسري في شرايين السواعد، ثم تنطلق شراراً يتكاثف عناقيد من القوة والغضب. لبنان كله خرج لاستقباله، وكان المحتفى به كبيراً ... أكبر من الموت كان، أكبر من الإغتيال، أكبر من القتل. أتى الناس كحبات التراب، كذرات رمال البحر، كنجوم لا تُحصى ولا تُعد من الوادي ومن السهل، من الجبل ومن البحر.

خرجوا كلهم لاستقباله، فقد كان خبزاً في الضيق وماءً في الشدة. تسابقت المدن في الضفة الغربية والقطاع على إطلاق اسمه على الميادين والمدارس، فقد كان صديقاً وفيّاً ورمزاً للذي لم يستطع الأعداء وأده، رسوخاً أمتن وثقلاً أعظم للتضامن الفلسطيني – اللبناني، وأخوتهما. من جهة البحر، تأتي روائح الأقحوان والزعتر، أطفال يلعبون بين الأنقاض ويبنون بيوتاً جديدة بحجارة صغيرة يجمعونها، ومن كان يصدق أن أطفال المجاعة أولئك قد عادوا إلى اللعب بأزهار الرمان «غلايينا» يدخلون بها، ثم يمنحون عالماً قاسياً مضى بالطمأنينة بعيداً، نظرة ثقة وأمل، فقد أتى يوم كانوا يكافحون فيه على أقدامهم كالرجال، توحد البؤس الفلسطيني والبؤس اللبناني، العذاب الفلسطيني والعذاب اللبناني، والتوق الفلسطيني والتوق اللبناني للتحرر من نير الاحتلال، وظلا يدافعان عن كل ما هو تقدمي ومشرق وواعد بالمستقبل.

أصبح كمال جنبلاط محطة على الطريق، وإشارة واعدة باليوم الجديد ... أصبح أقحواناً يجمعه الأطفال ويغمرون به أجسادهم، مخلفين وراءهم الحريق والرماد ... أصبح أحجاراً يحملها أولاد المهجرين وهم يحلمون ببيوت تُبنى ولا تُهدم.

أصبح، كان، اليوم أو غداً، ولكنه أبداً يبقى للفقراء، تلال الخبز والزعتر، بلسماً يمسح الجراحات الراحفة. فقد كان كبيراً، أكبر من الموت، من الإغتيال، من القتل ■

ليانة بدر
9/5/1977

بنسعيد في ذاكرة حواتمة ..

صنعنا معاً يساراً جديداً 1925-2024

■ الصداقة التي ربطت ما بيننا وبين محمد بنسعيد أيت إيدر وأنا، هي بحق، جزء من تاريخنا الشخصي، بل أجزم أنها كانت جزءاً من التاريخ السياسي لبلدنا. هو في أقاصي شمال إفريقيا، وعلى ضفاف الأطلسي، وأنا في غرب آسيا، وعلى الضفاف الشرقية للبحر المتوسط.

جمعنا الكثير من القضايا والهموم والرؤى، والقناعات، والمعتقدات السياسية، تطابقت في العديد من مراحل النضال الوطني، لشعب المغرب الشقيق ولشعوبنا العربية، خاصة في فلسطين وجوارها.

■ في إستعادة للذاكرة الثرية لما كان بيننا من أعمدة متينة لصداقة مديدة، وما كان بيننا من رؤى مشتركة، بل ومتطابقة في كثير من الأحيان، يمكن التوقف أمام وقائع، أعتقد أن أهميتها تكمن في ما تحويه من عبر ودروس وخبرات، لجيل من المناضلين، تحمّل أعباء النضال بأشكاله المختلفة، منذ مطلع النصف الثاني للقرن الفائت، أي القرن العشرين، والذي عاش تداعيات حروب كبرى وعاصفة شهدها العالم، أهمها الحربان العالميتان، الأولى والثانية، وتداعياتهما الكبرى على منطقتنا العربية، وأهمها تشطير الإمبراطورية العثمانية إلى أقطار، تربط بينها حدود غير مستقرة، شكلت منبعاً للتوتر الدائم فيما بينها، ونجحت في زرع قاعدة إستعمارية إستيطانية عدوانية، في قلب فلسطين، والمنطقة العربية، هي إسرائيل.

أما في شمال إفريقيا، حيث إرتكب الإستعمار الفرنسي والإسباني عديد المجازر في المدن والريف، كانت شهوة الإستيطان شرهة، إلى حد الإدعاء بأن بعض البلدان العربية كالجزائر، أنها فرنسية، واقتطاع أجزاء غالية من أراضي المغرب الشقيق هي سبتة ومليلية، وجزر الكناري، فضلاً عن إعادة رسم خرائط المنطقة، وزرع ألعاب فيها، ما زالت تتفجر في العلاقات بين أبناء الشعوب المغاربية، تشكل جرحاً نازفاً، لا بد من السعي لمداواته ومعافاته، ومحو الآثار العميقة للفتن الإستعمارية.

■ جمعتنا معاً قناعة راسخة بأن تحرير البلاد من الإستعمار والغزو الخارجي، يكون باعتماد المقاومة المسلحة، هذه القناعة عبر عنها محمد بنسعيد، في إلحاقه بجيش التحرير الشعبي المغربي، وتوليد قيادة أحد الفصائل، بحيث بات أحد زعماء حرب تحرير المغرب من الإستعمار الفرنسي، ونحن بدورنا ترجمنا هذه القناعة في الجبهة الديمقراطية، بحمل السلاح لتحرير الأراضي الفلسطينية المحتلة بعد هزيمة حرب حزيران/يونيو 1967.

■ تولدت هذه القناعة، لدى بنسعيد، إدراكاً منه لأمرين: الأول بأن لغة «العنف الإستعماري» التي حاول الإستعمار الفرنسي أن يقمع بها شعب المغرب، لا تصلح معها إلا لغة «العنف الثوري» كما كنا ندعوه في مرحلة ما من مراحل الكفاح المسلح في مشرقنا العربي؛ أما الأمر الثاني، فهو القناعة بأن الشرائح الطبقية والاجتماعية التي سيّدت نفسها على مجتمعاتنا في ظل ظروف خاصة في كل بلد، بدت عاجزة عن إجتراح إستراتيجية نضالية للإنقاذ الوطني، تأخذ بالإعتبار مصالح شعبيها، ولا تُغلب في هذا السياق مصالحها الفئوية. فئات إجتماعية، تقف مصالحها عند حدود الحفاظ على وظائفها السياسية في الحكم، ومهادنة الإستعمار، والإستعداد لتقديم التنازلات عن السيادة الوطنية، ووحدة البلاد، وكرامة المواطن وحرية، لذلك جاءت ثورة الشعب المغربي ضد الإستعمار، وبنسعيد أحد قادتها البارزين، لتشكل رداً، ليس على الحالة الإستعمارية وحدها فحسب، بل وكذلك لإسقاط سياسات الخذلان والخنوع للشرائح المتسلطة على مصالح الشعب، والتي لولا سلوكها المتهاون، لما بقيت على رأس الهرم السياسي.

■ عبّر عن هذا شعبنا الفلسطيني في الثورة الوطنية الفلسطينية الكبرى ضد الإستعمار البريطاني والغزو الصهيوني، وإحتجاجاً على تخاذل القيادات السياسية الفلسطينية في العام 1936.

كما عبّر شعبنا عن هذا، في إطلاق مقاومته المعاصرة في العام 1965، والتي إزداد زخمها بعد «معركة الكرامة» في 21 آذار/مارس 1968، وإزدادت تبلوراً ووضوحاً، مع إنطلاقة الجبهة الديمقراطية في 22

شباط/ فبراير 1969، حين تقدمت الجبهة الديمقراطية برفع راية الكفاح المسلح، بإعتبارها فصيلاً يسارياً، بادر إلى تبني الفكر اليساري الإشتراكي العلمي، في إطار مكونات فصائل الثورة الفلسطينية.

■ وسيسجل التاريخ لمحمد بنسعيد، أنه كان آخر من إختتموا فصل الكفاح المسلح في المغرب، بل يسجل له، في السياق نفسه، أن قناعته بضرورة الكفاح المسلح، فضلاً عن لجوئه إلى الجزائر، مع مطاردة السلطات وحكمها عليه بالإعدام، إجتمع باللّاجئين المغاربة الذين كانوا يقيمون على حدود البلاد، ورأى في وجودهم فرصة تاريخية لاستئناف الكفاح المسلح عبر الحدود ضد الإستعمار والنظام الغابر، لكن القيادات السياسية داخل البلاد، قطعت عليه الطريق، واختارت لنفسها مساراً مختلفاً، ما دفعه إلى الإنتقال إلى فرنسا، متخفياً، وقد أخذت قناعاته السياسية تزداد تبلوراً، بضرورة سلوك طريق سياسي جديد وبديل، يُبنى على التجربة، وهذا حسب معرفتي به، مما قاده إلى اعتماد اليسار والإشتراكية العلمية، مرشداً جديداً لمسار هذه التجربة النضالية.

■ مع بنسعيد، هو في تجربته المغربية، ونحن في تجربتنا المشرقية، توصلنا معاً إلى إستنتاج سياسي رائع الأهمية، قادنا معاً إلى تبني الفكر اليساري الإشتراكي العلمي، ووضعنا معاً فكراً يسارياً جديداً، بعيداً عن القوالب الجامدة، وفي سياق من الوعي لأهمية الديمقراطية وتخليص الفكر اليساري من الجمود الفكري والهيمنة البيروقراطية، ولا يخفى سراً أننا، في الجبهة الديمقراطية، ومعنا محمد بنسعيد، ورفاقه، إختلفنا مع قادة الإتحاد السوفييتي، في أكثر من مقولة أطلقتها موسكو، وفي أكثر من رؤية لها حول واقع الأنظمة العربية الوطنية، وأفاق تطورها نحو أنظمة ديمقراطية ثورية، على طريق الإنتقال إلى الإشتراكية، وهذا ما سُمي آنذاك «طريق التطور اللارأسمالي»، وجادلناه طويلاً، وللأسف، جاءت الوقائع لتؤكد صحة موقفنا في مساره النضالي الطويل، ونحن في عز نضالنا، شديد التعقيد، ضد الإحتلال والمشروع الصهيوني، في خضم محيط عربي صاخب، كان علينا أن نبقى في ذروة اليقظة الفكرية والسياسية، لنصون تجاربنا وتأكيد رؤانا، وأجزم أننا نجحنا في ذلك، وإن كان بنسعيد ورفاقه قد دفعوا الثمن غالياً، في إنسحاب عدد من الأعضاء في منظمة العمل الديمقراطي، لصالح حزب إلتقى في نهجه ومساره، مع المسار اليميني في الحركة الوطنية المغربية؛ كما دفعنا، نحن أيضاً، ثمناً حين غادر الجبهة الديمقراطية مجموعة من الأعضاء، إعتقدوا أن الإلتحاق باليمين الفلسطيني فكراً، وسياسة، كفيل بحفظ مصالحهم الفئوية التي كانت الهاجس الرئيس خلف إلتحاقهم به.

■ في هذا السياق أجزم أن حسم الخلاف داخل «منظمة العمل الديمقراطي»، والذي أدى إلى ما أدى إليه، هو الذي مَكَّن هذا الجسم السياسي أن يحمي فاعليته، وأن يصون تماسكه، وأن يخطو الخطوات التاريخية التي وصلت إلى قيام «الحزب الإشتراكي الموحد» بقيادته الشابة، التي تربت خلال العقود الماضية على يد الصديق والرفيق والشريك في الفكر والمسار السياسي، محمد بنسعيد.

كذلك أجزم أن حسم الخلافات داخل الجبهة الديمقراطية، هو الذي صان تماسكها، كما صان لها موقعها المتقدم في المسار الوطني، جزءاً مبادراً، فاعلاً حيوياً، بدأ يحتل مواقع جديدة على جبهات الفصائل، وبالتالي لا مبالغة في القول أن الجبهة الديمقراطية واحدة من الأركان الثابتة، بل والأكثر ثباتاً في الحالة الوطنية الفلسطينية، تحتل موقعاً متقدماً في التراتبية السياسية داخل م.ت.ف.

■ ونحن نستذكر هذه القامة الباسقة، وهذه الشخصية المميزة، وهذا القائد الوطني المغربي العروبي الكبير، وأحد كبار المجددين في بناء اليسار الجديد، لا بد من القول أن بنسعيد، كان فلسطينياً بقدر ما كان مغربياً، كنا على الدوام حريصين على اللقاء في الدار البيضاء، وفي دمشق، نحرص على التشاور، نتواصل عبر الهاتف، وعبر الرسائل، نتبادل الأفكار والمعطيات، هو في ميدانه المغربي الواسع والكبير، ونحن في ميداننا الفلسطيني والمشرقي الصاخب، وإذا كان علينا أن نتذكر أمراً ما، سيبقى خالداً في الذاكرة، تلك المسيرة الكبرى في تشييعه إلى مثواه الأخير، تقدم صفوفها كبار القادة السياسيين والحزبيين، وممثل ملك البلاد، وكبار الرسميين، ترفرف فوق رؤوسهم رايات المغرب ورايات فلسطين، والحطات الفلسطينية ملتفة

على الأعناق، حناجر تصرخ في الهتاف الفلسطيني كما تهتف لبنسعيد الذي رأى في «طوفان الأقصى» والصمود الأسطوري لشعبنا ومقاومتنا في قطاع غزة والضفة الغربية، فجرأ فلسطينياً جديداً، أشرق على عموم المنطقة، هز أركانها، وزلزل كياناتها، وقطع الطريق على المسارات المعادية، وشق الطريق للمسارات الوطنية.

■ بنسعيد الذي غادر وهو يتلقى من رفاقه في الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، ومن ذراعها العسكري «قوات الشهيد عمر القاسم»، بيانات الأعمال البطولية للمقاومين، وهو يتلقى من المكتب السياسي للجبهة الديمقراطية، التقارير السياسية والدراسات والمذكرات، في قراءات عميقة لـ «الطوفان الكبير»، ولما سوف تؤدي إليه الأوضاع.

أخيراً أقول:

رفيقي بنسعيد، نحبي ذكراك الأولى، وقد التف حول صورتك وشعاراتك وذكراك آلاف الشباب، وآلاف المناضلين والمناضلات، هؤلاء الذين نشأوا بقيادتك، تشربوا من أفكارك، واغتنتوا بجدارتك، وهم على العهد والوفاء باقون ■

نايف حواتمة

9/1/2025

أنطون سعادة .. مفكر قومي كبير،

شاء القدر أن يكون زعيماً

1904-1949

■ ينظر كثير من المؤرخين، وعلماء الاجتماع، إلى الزعيم أنطون سعادة، على أنه مفكر وقامة سياسية سامقة، جاء إلى ساحة النضال الوطني والمجتمعي، متجاوزاً عصره، فقد وجد نفسه، وهو يطرح أفكاره التقدمية، الإصلاحية الجذرية، يصارع نخباً سياسية تقليدية محافظة، أو حتى رجعية، تقلدت مواقعها في إدارة شئون بلدان المنطقة، تحت سقف الدوائر الإستعمارية، الساعية لإفراغ مفهوم الإستقلال من جوهره السيادي، لصالح تبعية سياسية إقتصادية للغرب الإستعماري.

لذلك، لا غرابة أن تتحالف هذه التيارات السياسية على اختلاف مشاربها، متجاوزة الخلافات فيما بينها، كما وقع في سوريا ولبنان، وتحريك مؤامرة مكشوفة، لتنتهي حياة الزعيم، عبر إغتياله في 4/7/1949 بقرار قضائي تعسفي، مُعد مسبقاً من أعلى المرجعيات، نفذته السلطات الحاكمة ما أن صدر.

■ الزعيم أنطون سعادة إستشهد، لكنه لم يفارقنا، بل بقي بفكره معنا، لا نكتفي باستحضاره في مناسبات ولادته أو إستشهاده، بل هو راهن الحضور عبر الفكرة التي أطلقها وصارت مشروعاً سياسياً يدب على الأرض، ممثلة بحزبه، الحزب السوري القومي الإجتماعي.

لقد زرع الزعيم سعادة بذرة في وعي الناس، أفراداً، ومجتمعاً، وأمة، وصارت البذرة شجرة باسقة، قاومت الرياح العاتية، وتحدثتها، بحيث صار الحزب السوري القومي الإجتماعي ركناً من أركان حركة التحرر الوطني والإجتماعي في المنطقة، ضد سياسات الهيمنة الغربية، وضد المشروع الصهيوني ممثلاً بإسرائيل.

■ وكل مفكر مبدع، لا تندثر أفكاره حتى بعد رحيله، آمن سعادة بالإنسان، باعتباره أساساً لبناء المجتمع، وبالمجتمع باعتباره مكوناً للأمة، أي بتعبير آخر، آمن بدور التنظيم كرافعة للبناء والتغيير، وهو المفكر المطلع على تجارب الشعوب والأمم والقوميات الأخرى، وفي القلب منها «الأمة السورية» كما يُعرفها إنطلاقاً من معطيات الوجود في الزمان والتجذر في المكان.

وهو الذي نظر إلى واقع «الأمة السورية» كونها تعيش تحت وطأة «وعد بلفور»، الذي شرّع أبواب فلسطين أمام الهجرات اليهودية في سياق إنجاز المشروع الصهيوني لإقامة دولة إسرائيل، كما وكونها - أي «الأمة»- تعاني من تفاهات «سايكس - بيكو»، التي مزّقت المنطقة إلى كيانات سياسية عدة، تحكمها نخب سياسية، تنتمي وفرة منها إلى الإقطاع السياسي، أو إلى النخب العسكرية المنشغلة بصراعات السلطة على حساب توطيد أركان الوطن، أو تلك التي مدت يديها إلى المشروع الصهيوني، تتآمر معه، لتقاسم فلسطين، باعتبارها غنيمة سياسية مستباحة.

■ ورغم أن الفكر السوري القومي الإجتماعي، تعارض لفترة مع الفكر القومي العربي، ومع فكر الاشتراكية العلمية، إلا أنه شق طريقه، ونجح في تطوير أدواته السياسية والحزبية، واندمج في خندق النضال، جنباً إلى جنب، مع باقي القوى والتيارات السياسية، مدركاً أهمية إنتمائه إلى حركة التحرر في المنطقة، وضرورة إخراجها من التخلف والإنقسام والتفتت، الذي أبقاها فريسة للإنتداب الإستعماري الفرنسي والبريطاني، مؤهلة في كل مرحلة للإستتباع في ظل هيمنة الغرب على منطقتنا.

البذرة التي زرعا الزعيم سعادة، لم تكتف بطرح مشروع الأمة السورية، بوحدتها، بل إهتم بتجديد الوعي، شعاره «التوليد لا التقليد»، ما أسهم في التأسيس لثورة فكرية، شعارها «العقل لا النقل». لقد أسهمت هذه الثورة في مقارعة الأفكار المفقّنة، الهادفة إلى تفتيت المجتمع إلى أقوام وأديان ومذاهب وملل ونحل، بدلاً من توحيده في ظل مشروع إستقلالي قومي جامع بأفق تقدمي.

لذلك، لا غرابة أن يدعو الزعيم إلى تجاوز حدود الأفكار البالية التي يقوم عليها الإنتماء الهوياتي الضيق، لصالح الإنتماء إلى المجتمع بكلّيته، وإلى الأمة بأسرها، وأن يرى في هذه الأفكار المفقّنة، وخاصة عندما تتأسس بأي من الأشكال، قوة شد عكسي، توغل في إلغاء التحولات الثورية في الفكر والوعي، إن لم نقل تعطلها.

■ بقي أن نقول إن الزعيم سعادة، لم يكن شهيد تأمر النخب السياسية المنصاعة فحسب، بل كان في واقع الأمر، شهيد فلسطين. لقد قرأ الزعيم مبكراً خطر المشروع الصهيوني على مشروع نهضة الأمة في عين المكان، أي على فلسطين، ولبنان وسوريا، والأردن والعراق، فدعا مبكراً إلى محاربة هذا المشروع قبل استفحاله، وقبل أن يشتد عوده ويتحول إلى خطر داهم على شعوب المنطقة بأسرها.

وما لم يدركه البعض، والبعض المتنفذ غالباً، بعد النكبة، أدركه الزعيم، قبل وقوعها، لذا احتل المشروع الصهيوني بمخاطره على الأمة، موقعه المتقدم في وعيه، ومن هنا إهتمامه بتطهير ما يمثله من تهديد وجودي يستدعي المسارعة إلى توفير شروط إجهاضه قبل أن يتحول إلى قوة سيطرة وتسلط، مسنودة بالغرب.

من هنا، كان إنخراطه في القتال ضد العصابات الصهيونية في فلسطين، على رأس أعضاء حزبه الذين شكلوا أحد فصائل القتال الفاعلة في فلسطين.

وفي هذا السياق، أدرك أنطون سعادة بعد النكبة، الأثر البالغ لهذا الحدث الكبير على مصالح الأمة، ومستقبلها، وحدثها، وانشغالها بدرء الخطر الصهيوني على صناعة المستقبل المشرق.

■ ما أسس له الزعيم، في ثلاثينيات القرن العشرين، واستشهد لأجله قبل أن ينتصف القرن بعام، يصونه الآن حزبه، الحزب السوري القومي الاجتماعي، بانخراطه في القتال، ضد الاحتلال الإسرائيلي؛ ويتبنيه خيار المقاومة، جنباً إلى جنب، مع باقي فصائل المقاومة في المنطقة، قدم الحزب من أجل تحرير لبنان من قوات الغزو الإسرائيلي عام 1982 قافلة من الشهداء، إلى أن اندحر الاحتلال عن الأراضي اللبنانية عام 2000، وما زال الحزب السوري القومي الاجتماعي، في خندق الدفاع عن «الأمة» في وجه العدوان الإسرائيلي، والهيمنة الغربية، مدرّكاً الواقع المستجد، باعتبارنا نعيش في هذه المنطقة مرحلة تحرر وطني بمواجهة مشروع بناء الحلف الإسرائيلي - العربي، تحت المظلة الأميركية، بدعوى «التكامل الهيكلي» للإقليم، عبر «دمج» إسرائيل في المنطقة، وبناء حلف «الناطو العربي» بمشاركة إسرائيل، بذريعة «التكامل الدفاعي» ضد الفعل الوطني المقاوم المتصاعد فعلاً وتأثيراً على إمتداد الإقليم.

■ ■ ■

■ في استذكارنا لسيرته ورحيله إغتيالاً على يد أنظمة التبعية للإستعمار الغربي، نستعيد سيرة قامة فكرية، تحوّل إبداعها الفكري إلى قوة سياسية فاعلة، إلّفت حولها آلاف وآلاف المحاربين والمؤيدين، وانتمت إلى فكر أثبت قدرته على الحياة، هو فكر الزعيم أنطون سعادة ■

فهد سليمان

4/7/2024

فرحات حشّاد .. رمز يتجاوز الزمن 1914-1952

■ يصعب أن نكتب التاريخ دون أن يتسرب الحاضر إلى ما نكتب، خاصة حين يتعلق الأمر بالتعرض إلى التاريخ الحديث والمعاصر، وإلى أبرز رموز الذين ظل تأثيرهم، ولو بدرجات متفاوتة، ملموساً في الحاضر، ذلك أن الحاضر – وأكثر مما يعتقد البعض - يفعل فيه الأموات – أحياناً - أكثر مما يفعل فيه الأحياء. وهو ما أشار إليه العديد من المفكرين، ومن بينهم كارل ماركس؛ ولذلك نُحيل سيرة زعيم أو فاعل في المجالين الإجتماعي أو السياسي إلى تساق، لا يستجيب لتوالي الحقب الزمنية، بين الماضي والحاضر، وهذا ما يتجلى في سيرة الشهيد فرحات حشّاد: [

زعيم نقابي عالمي

■ مضت على عملية إغتيال مؤسس الإتحاد العام التونسي للشغل في 5/12/1952 عقود، وتم منذ أسابيع إحياء الذكرى 72 لهذه العملية الدنيئة التي ظلت عالقة في أذهان التونسيين والتونسيات، والتي أعطت دفعا قويا لنضال الشعب التونسي من أجل دحر الإستعمار الفرنسي.

عرفت مدن المغرب وعواصم أوروبا وأميركا الشمالية تحركات عمالية حاشدة للتنديد باغتيال فرحات حشّاد، الذي لم يقع النظر إليه كنقابي تونسي فحسب، بل كأحد زعماء الحركة النقابية العالمية، وهو الذي كان يلعب دوراً بارزاً صلباً أوضاع الكونفدرالية العالمية للنقابات الحرة، التي لم يكن قد مضى على تأسيسها في 7/2/1949 عند إغتيال فرحات حشّاد، أكثر من ثلاث سنوات.

لقد لعب فرحات حشّاد دوراً مؤثراً في دفع عدد من النقابات العمالية العربية والإفريقية إلى الانسحاب من الكونفدرالية النقابية العالمية، وإلى الانضمام إلى الكونفدرالية العالمية للنقابات الحرة، حيث يحمل الاختيار بين «النقابتين العالميتين» دلالات كبرى في عالم ما بعد الحرب العالمية والانتقال إلى الحرب الباردة، لأنه إختيار بين نقابة لا تخفي ميولها لمفهوم النضال النقابي كما تتبناه الاشتراكية العلمية، وإنحيازها إلى الشعوب الناهضة ضد الإستعمار، ونعني الكونفدرالية النقابية العالمية، وأخرى تتبنى قيم «الفكر الإستعماري»، وتعتبر أن الدور الأساسي للنقابات هو دور مطليبي ليس إلا، وأن العمل السياسي من إختصاص الأحزاب السياسية وحدها.

النقابة في مواجهة الإستعمار

■ وراء هذا الإختيار عوامل «ذاتية»، ترتبط بقراءة حشّاد للوضع السياسي في تونس، وأيضاً لخلافاته السابقة مع الفرع التونسي للكونفدرالية العامة للشغل - CGT، أي النقابة الفرنسية المحسوبة على الحزب الشيوعي الفرنسي، والتي كانت تعتبر أن النضال من أجل الإستقلال لا يحتل المقام الأول، لأن المهمة

الأساسية هي النضال ضد الإستغلال الذي يمارسه رأس المال، ولكن هذا «النزوع الأممي» لم يكن حائلاً دون نظر قادة الكونفدرالية العامة للشغل في تونس إلى العمال التونسيين نظرة تمييزية، وإلى التعامل مع وضعيتهم ومطالبهم باستخفاف. يضاف إلى ذلك، أن فرحات حشّاد كان مقتنعاً أن المعسكر الشرقي لا يمكن أن يلعب دوراً في مساعدة تونس في نضالها من أجل الإستقلال، وكان يشترك في هذا «الإيمان» مع قادة حزب الدستور وخاصة الحبيب بورقيبة، ويشير المطلعون على تاريخ الحركة الوطنية التونسية، إلى أن فرحات حشّاد قد لعب دوراً في توظيف مباديء الرئيس الأميركي وودرو ويلسون - 1924/1856، والذي تولى رئاسة الولايات المتحدة الأميركية بين عامي 1913 و1921، لمطالبة واشنطن بأن تلعب دوراً في دعم مطالب الحركة الوطنية التونسية من أجل الإستقلال، خاصة وأن حجر الزاوية في مباديء ويلسون هو التأكيد على حق الشعوب المستعمرة في تقرير المصير.

على كافة محاور النضال

■ إيمان حشّاد بالنضال السلمي وتحركه لحشد الدعم السياسي والديبلوماسي لم يمنعه من أن يلعب دوراً بارزاً في النضال المسلح ضد الإستعمار الفرنسي، لأنه يعتبر أن وجهي النضال يتكاملان، وهو ما جعله يتحول منذ 1952/18/1، وهو تاريخ الإعلان عن إنطلاق الثورة التونسية، إلى المحرك الفعلي للثورة، وخاصة بعد اعتقال الحبيب بورقيبة، ثم مغادرته تونس. كان فرحات حشّاد يتحرك بعزيمة لا تلين، على عدة جبهات في الوقت نفسه: جبهة توفير الأموال والأسلحة للثوار في الجبال، وجبهة الضغط السياسي ودعم الجبهة الوطنية، وخاصة ردم الفجوة بين الحركة الوطنية والعائلة المالكة، والإستفادة في ذلك من إرث «باي الشعب»، المنصف باي، الذي طالب بإنهاء العمل بمعاهدة الحماية التي أبرمت في 12/5/1881، وأصبحت بمقتضاها «الإيالة التونسية» مستعمرة فرنسية. يضاف إلى هاتين الجبهتين، جبهة النضال الإجتماعي لتطوير وضعية العمال التونسيين، ولتطوير التعليم وتعميمه، وتحسين وضعية المرأة.

رجل الوحدة الوطنية والبحث عن التوافقات

■ كان حشّاد يجمع بين القدرة على المناورة والمرونة، مع إعتداد المرحلية في تحقيق الأهداف إلى جانب الرغبة في تعزيز الوحدة الوطنية، والبحث عن التوافقات؛ وكان يدرك أن مراكمة الأعشار أفضل من مراكمة الأصفار، وهو ما تجلّى في عملية تأسيس الإتحاد العام التونسي للشغل، فلم تكن العملية مسقطاً أو متسرة، بل اعتمدت على الإستفادة من بداية تشكل طبقة عاملة تونسية، وهو ما لم يكن متوفراً بالشكل الكافي عند تجربة التأسيس الأولى، التي قام بها محمد علي الحامي عند تأسيس «جامعة عموم العمال التونسيين» سنة 1924، وأيضاً من التحولات المجتمعية التي أفرزتها المرحلة ما بين 1920 و1940. ومن أهم هذه التحولات، تزايد عدد أصحاب الشهادات العليا، خاصة الذين درسوا في أوروبا، والتشكل السياسي للهوية الوطنية التونسية، مما عجل في دحض الإدعاء الإستعماري القائل بأنه لم يجد في تونس إلا «غباراً من الأفراد»، وفي الوقت نفسه، تكريس «إستقلال معنوي» عن الباب العالي وإسطنبول. ولا شك أن سقوط الخلافة العثمانية سنة 1924 قد ساعد على ذلك.

معطيان آخران

■ هناك معطيان آخران لا يتعين إغفالهما، يتمثل الأول في أن قبضة «الشيوخ» قد إرتخت لفائدة «الشباب» الذين أصبح من حقهم أن يلعبوا دوراً في إنتاج المعنى، وفي قيادة الحركات السياسية والإجتماعية؛ أما المعطى الثاني فيتمثل في كسر إحتكار العاصمة ووجهائها لقيادة المجتمع، وهم الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أفضل من «الآفاقيين» (وهي عبارة كانت تطلق على القادمين للعاصمة طلباً للعلم في جامع الزيتونة من داخل البلاد)، وإذا كان التطرق إلى هذه التحولات يحتاج إلى مقال منفصل، فإن توظيفها في تأسيس الإتحاد العام التونسي للشغل يوم 20/1/1946، قد منح هذه المنظمة النقابية، وهي «الأقدم حالياً في إفريقيا والوطن العربي»، ملامح هوية كفاحية ظلت فاعلة إلى حد الآن، ومنها الإلتزام بدعم القضايا العادلة، وهو ما إلتزم

به الإتحاد العام التونسي للشغل منذ 1948، حين أسس لجنة دعم فلسطين، التي تولت تأطير المتطوعين، الذين قصدوا فلسطين وجمعت تبرعات مالية هامة.

الإتحاد في قلب الحراك الشعبي

■ المكون الثاني لهوية الإتحاد العام التونسي للشغل، هو أنه ليس مجرد منظمة نقابية، بل إنه طرف فاعل في كل ما يهم المجتمع التونسي، وهذا ما تجلّى في أهم منعطفات مسيرة المجتمع التونسي بدءاً من معركة الإستقلال وصولاً إلى «ثورة الياسمين»، وأيضاً معركة كتابة دستور 2014، هذا الدور له تداعياته على الحياة السياسية في تونس منذ الإستقلال، حيث تراوحت العلاقة بين الإتحاد العام التونسي للشغل والسلطة السياسية بين الهدوء والحوار، وأيضاً المواجهات التي ترك بعضها، كما هو حال الإضراب العام في 26/1/1978، ندوباً فاعلة في الوجدان التونسي إلى اليوم.

لقد إحتضن الإتحاد العام التونسي للشغل على إمتداد عقود أجيالاً من المثقفين والأكاديميين الذين وجدوا فيه مجالاً للتعبير عن أفكارهم، وخاصة للدفاع عن «الدولة المدنية»، وعن العدالة الإجتماعية، وعن حقوق الإنسان، وفي ذلك إمتداد للمبادئ التي غرسها فرحات حشّاد، الذي حولته فرنسا حين اغتالته إلى رمز يتجاوز الزمان، ولا يزال رفض فرنسا الإعراف الرسمي والعلني بمسؤوليتها في عملية الإغتيال، هذا دون الحديث عن واجب الاعتذار، يشكل دافعاً لبقاء ذكرى إستشهاد فرحات كأحد رموز مناهضة الإستعمار، ذكرى حيّة في ظرف تبرز فيه مؤشرات رغبة القوى الإمبريالية في النكوص بالإنسانية إلى مرحلة الإستعمار المباشر.

ولعله من الإشارات اللافتة لهذا المغزى العميق لسيرة قائد كبير إغتاله الإستعمار، إحتضان مدينة جنين - برمزيتها الكفاحية المعروفة - مدرسة أسسها الإتحاد العام التونسي للشغل، تحمل إسم «فرحات حشّاد»، عنواناً للعلاقة الأخوية والكفاحية بين شعبي تونس وفلسطين، وتأكيداً على المكانة المتميّزة التي يحتلها هذا القائد الشهيد في وجدان المناضلين عموماً من أجل حرية الأوطان وإستقلالها ■

هشام حاجي

12/1/2025

أحمد نبيل الهلالي ...
«قديس اليسار المصري»
1922-2006

(1)

مؤسس حزب الشعب الاشتراكي - 1987

■ الحديث عن أحمد نبيل الهلالي مؤسس حزب الشعب الاشتراكي، سهل وصعب في آن؛ سهل لأن الراحل الكبير إتسم بالصراحة والشفافية والوضوح والشجاعة .. في زمنٍ باتت فيه الصراحة جالبة للمتاعب، والشفافية مخاطرة، والوضوح مغامرة، وباتت فيه الشجاعة مكلفة؛ **وصعب** لأنه كان موسوعة في السياسة، وفي الفكر، كما في مجال إختصاصه كرجل محاماة، يُعَدُّ شيخاً من شيوخها..

من هنا، تكوّنت شخصية أحمد نبيل الهلالي المميّزة، وكانت له مكانته المرموقة في مصر، في صفوف الحركة الشعبية، مناضلاً سياسياً صلباً، ذا نظرة موضوعية، وإرادة ثابتة، ووعي متجدد؛ كما كانت له مكانته المرموقة **كقومي**، عروبي ينظر إلى قضايا الأمة من منظاره الخاص، مدركاً حقيقة الموقع الذي تحتله مصر في حياة هذه الأمة، وحجم تداعيات القرار السياسي المصري على مصالحها؛ كما كانت له مكانته **كأممي** حريص على استقلالية وعيه، وقَدَّمَ في هذا الميدان نموذجاً جديداً يستحق تقدير المناضلين.

وإذا ما حاولنا أن نذهب بعيداً في قراءة شخصية الراحل الكبير، لوجب علينا أن نقول الكثير. فالإحاطة بالصديق والرفيق أحمد نبيل الهلالي مهمة تحتاج إلى جهد جماعي، يرتقي إلى مستوى الرجل، يشارك فيه صف ممن عرفوه، وخبروه، وعاشوه، وواكبوا مسيرته الكفاحية الطويلة والثرية والمتنوعة، ممن أيدوه في مواقفه، وكانوا حلفاء وشركاء له في نضاله، ومن خالفوه في رأيه، لكنهم على الدوام ينظرون إليه باحترام شديد ...

فهو حليف وفيّ لمن حالفه، وهو خصم شريف لمن لده الخصومة. وهو في كل الأحوال نبيل ... وبقي على الدوام نبيلاً■

(2)

إبن الباشا الملتزم بقضايا الكادحين

■ كان الراحل الكبير شديد الإنسجام مع معتقداته الأيديولوجية ومفاهيمه وقيمه السياسية. وقد رأى أن الإنحياز لليسار، من موقعه المعروف، يفترض الإنسلاخ الطبقي، بمعناه الفكري ومعناه العملي، أي بالممارسة؛ لذلك لم يكتفِ بأنه حمل فكر الطبقة العاملة، وانحاز إلى الفقراء والعمال والفلاحين في بلده، بل خطا خطوات جريئة تنسجم إلى أبعد حدود مع إنحيازه هذا ... فتخلّى عن موقعه كإبن لباشا - أحمد نجيب الهلالي - كان يوماً ما رئيساً لحكومة بلاده، هي آخر حكومة تشكلت في العهد الملكي، وتخلّى عن أملاكه وثروته وعن كل ما يرمز إلى انتمائه الطبقي السابق، وعاش حياة متقشفة، هي أقرب إلى حياة الزهد، حتى أنه استحق عن جدارة لقب «قديس» الفقراء والمناضلين.

هذا الزهد وهذا التقشف، وهذا الإنحياز الطبقي، بالفكر والممارسة وبمظاهر الحياة اليومية، طبع ممارساته في التعاطي مع الأمور، كما ترك أثره الكبير في وعي المناضل أحمد نبيل الهلالي .. لذلك كان في سلوكه يقدم نموذجاً آخر في انتماء المناضل إلى الحركة الوطنية في بلاده.

لم تتغلب على مشاعره يوماً العصبوية الحزبية، ولم تمنعه الخلافات والتباينات السياسية عن مد الجسور نحو باقي القوى السياسية في الحركة الوطنية المصرية، حتى مع تلك التي كان بينه وبينها سجلات فكرية وسياسية، إذ رفض أن تتحول هذه السجلات، على أهميتها وغناها، إلى مادة للخصومة؛ لذلك كان في مقدمة المحامين الذين تطوعوا للدفاع عن المناضلين من أبناء الحركة الوطنية المصرية في مواجهة القضاء ...

كان محامي الجميع دون تمييز في الانتماء الحزبي أو السياسي لهذا المناضل أو ذاك، بما في ذلك من انتسب إلى اتجاه الإسلام السياسي، ودون أي تأثير بخصومة سياسية قد تكون نشبت بينه وبين هذه الفئة السياسية أو تلك. كان يعتبر كل المناضلين في صفوف الحركة الوطنية المصرية أبناء الخندق الواحد، وكان يعتبر نفسه محامياً لهذا الخندق■

(3)

«حرية الفكر والعقيدة، تلك هي القضية»

■ كان حزبياً، نعم، لكنه كان حزبياً من طراز آخر. لم يسمح لحزبيته أن تتحول إلى عصبوية تنظيمية تقود أصحابها إلى الإنغلاق على الذات والإنعزال عن الآخرين، بل كان رائزه «حرية الفكر والمعتقد» كما عنوان أحد مؤلفاته.

ولعل روحه الديمقراطية وإيمانه العميق بأن الديمقراطية هي السبيل إلى بناء العالم الجديد هو الذي حرره من تلك العصبوية، وسلحه بروح الإنفتاح على الآخرين.

وقد ترجم مواقفه هذه في أكثر من محطة وفي أكثر من موقف، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، دعوته في الجمعية العامة لنقابة المحامين لأن تكون النقابة إطاراً جامعاً لكل التيارات السياسية في صفوف المحامين، بما في ذلك تيار المستقلين.

إن دعوته هذه، كما أوضح، لم تكن لنزع الصفة السياسية عن نقابة المحامين، بل لتعزيز هذه الصفة من خلال تحصين النقابة بالقوى الوطنية والتقدمية والديمقراطية كافة، معترفاً لأصحاب الأغلبية في الانتخابات النقابية بحقهم في التمتع بهذه الأغلبية داعياً إلى صيغة توازن بين احترام نتائج الانتخابات وبين ضرورات البناء الديمقراطي والتعددي للنقابة.

والسبيل إلى ذلك كما كان يرى هو بناء تحالفات للقوى السياسية الوطنية والتقدمية، وللتيارات الوطنية المستقلة، بما يحصّن النقابة، ويمدها بعناصر القوة خاصة وأنها تحتل موقعاً مميزاً في الحياة السياسية في البلاد، وفي الدفاع عن الديمقراطية.

وفي السياق نفسه تحلّى راحلنا الكبير بنظرة وحدوية لعمل القوى الوطنية والديمقراطية في مصر؛ ففي مواجهة الطرف الآخر، بصفوفه المنتظمة، وقواه المتعددة، دعا الهلالي إلى بناء إطار خاص بالقوى الديمقراطية والوطنية هو أشبه بالائتلاف الوطني العريض، يضع حداً لحالة الشذمة والتفتت في صفوفها، ويقدمها إلى المجتمع المصري في صيغة جديدة، تعيد تقديم العمل الحزبي بصيغته الحقيقية، نضالاً وتضحية لأجل الوطن والمواطن، وليس بحثاً عن مكاسب فئوية ضيقة■

(4)

الدعوة إلى تجميع القوى

■ إن دعوة أحمد نبيل الهلالي هذه، تتجاوز في رؤيتها الموضوعية حدود مصر، لتشكّل لنا نحن الفلسطينيين درساً غنياً، في بناء مؤسساتنا الوطنية على أسس تعددية إئتلافية وديمقراطية جامعة إن على مستوى المؤسسات السياسية للسلطة الفلسطينية أو منظمة التحرير الفلسطينية. وكذلك الأمر في الأطر المهنية والمنظمات الشعبية، خاصةً وأنا نعيش مرحلة تحرر وطني في مواجهة عدو شر لا يرحم، كما تؤكد ذلك يوميات الاحتلال والإستيطان، نقوى في مقاومته بقدر ما نعزز وحدتنا الوطنية بمضمونها الديمقراطي والتعددي. كما أن دعوته لبناء إطار ينظم صفوف أطراف الحركة الوطنية المصرية، هي أيضاً دعوة لنا، نحن الفلسطينيين، لنوحد قوانا، ونبني إئتلافنا الوطني في السلطة الفلسطينية ومنظمة التحرير سواء بسواء. لقد جاء الحوار الوطني الفلسطيني في محطته الأخيرة بين رام الله وغزة متوجاً بـ «وثيقة الوفاق الوطني»- 2006، ليوفر البرنامج الذي ستنهض عليه حكومة الاتحاد الوطني كضرورة وطنية غير قابلة للتأجيل، والتي وحدها ستكون بمستوى التحديات التي تعترض سبيل القضية الفلسطينية... والأمل يحدونا أن نستكمل هذا الحوار خارج الوطن في فترة قريبة جداً، إمتداداً لمؤتمرات الحوار الثلاثة التي استضافتها القاهرة وآخرها في آذار/مارس 2005، ليتم الإتفاق على الخطوات الملموسة الآيلة إلى تفعيل منظمة التحرير وتطويرها في سياق إعادة بناء مؤسساتها، إطاراً جامعاً لعموم الحركة الفلسطينية بكل مكوناتها■

(5)

الصديق الوفي لشعب فلسطين

■ لقد إحتفظ راحلنا الكبير لنفسه، أمام المتغيرات الدولية، ببوصلة شديدة الحساسية تقوده إلى الإتجاه السليم. والإتجاه يكون نحو القضية الفلسطينية والصراع ضد المشروع الصهيوني. ومن هنا إنطلق في محاكمة مواقف الأصدقاء ومواقف الأعداء، مدركاً أن القضية الفلسطينية هي المدخل الصحيح إلى نسج العلاقات على أسس موضوعية؛ ومن جهة أخرى بقي فهمه للصراع ضد الإمبريالية، يقوم على رؤية لم تزعزعها الدعوات الأمريكية إلى الإصلاح والديمقراطية وغير ذلك من الشعارات، التي تحاول أن تخفي وراءها المقاصد الحقيقية للهيمنة الأمريكية على المنطقة.

وتبدو لنا، العودة إلى ما قاله المناضل والمفكر أحمد نبيل الهلالي، في هذا المجال، مصدراً من مصادر تحصين الفكر، وتصليب المواقف، وإغناء القدرة على التحليل والتخطيط، وشق الطريق الذي يفترض بنا أن نشقه، معبراً عن مصالح العمال والفلاحين وعموم الشرائح الفقيرة والمهمشة، فضلاً عن المثقفين الثوريين■

(6)

في وداع «قديس اليسار»

■ وأخيراً، ها هي مصر تودع هذا الرجل إبناً باراً من أبنائها المخلصين، يحتضنه ترابها، وهو الذي كرّس حياته فداءً لتراب مصر وشعب مصر. رحل الهلالي، «قديس اليسار» كما كان يُلقب، لكن تراثه سيبقى، فلنعمل جميعاً لصونه، ولنبقى أوفياء له.

إن كنا قد اتفقنا معه، أو اختلفنا، علينا أن نعترف أننا خسرنا برحيله مناضلاً ولا كل المناضلين ورجالاً ولا كل الرجال، فهو ابن الباشا الملتزم بقضايا الكادحين، الذي سلخ من عمره 9 سنوات أمضاها في سجون النظام .. 1959-1964 + 1965-1969؛
لكن العزاء أن الأرض التي أنجبت الهلالي، ستتجب غيره ... فمصر هي بلد العطاء، وهي أرض الوفاء ■

فهد سليمان

10/7/2006

الفصل الثالث

قادة من الحركة النسائية

- عصام عبد الهادي
- نهية محمد
- سميرة خليل
- آمنة الريماوي
- شادية أبو غزالة
- أم ناصر

عصام عبد الهادي .. النموذج الاستثنائي 1928-2013

■ تستحق المناضلة والقائدة الملهمة عصام عبد الهادي، أن تكون منارة دائمة في التاريخ الكفاحي الطويل للشعب الفلسطيني، إذ تقدمت الصفوف والأجيال في الحركة الوطنية، كما في الحركة النسائية الفلسطينية، بعزم لا يلبين، ويقين بالحق يشبه إشراقة النصر الذي لا بد وأن يأتي يوماً. لم تتوقف على مدى أكثر من نصف قرن، عن العمل الدؤوب والنضال، حتى في المحطات الصعبة التي مُنبت بها الحركة الوطنية الفلسطينية بنكسات وارتدادات سياسية، صغيرة كانت أم كبيرة. ولأسباب تتعلق بشخصيتها الاستثنائية، وانتمائها الوطني العميق، وأخلاقها الرفيعة، فقد كانت محط إجماع القوى الفلسطينية دون منازع. ونذر أن أجمعت القوى الفلسطينية على شخصية مستقلة، كما حصل مع الراحلة عصام عبد الهادي. وهنا، علينا أن نسجل لها موهبتها في نسج الخيوط الدقيقة الجامعة بين المختلفين، دون تخليها عن موقفها الصريح والمبدئي من مختلف السياسات التي كانت تعتمد عليها القيادة الرسمية في منظمة التحرير الفلسطينية، كلما تطلب الأمر ذلك.

■ الإلتزام الوطني بالنسبة لـ«أم فيصل» هو فعل وحياء يومية، يستند الى مبادئ وطنية وأخلاقية راسخة؛ فالمناضلة الكبيرة - التي نتحدث عن بعض جوانب سيرتها - جمعت بين الأداء السياسي المسئول في المحافل العربية والدولية، وبين العمل الداخلي على رأس الإتحاد العام للمرأة الفلسطينية مع رفيقات دربها؛ ومن هذا الموقع، فقد مثلت المرأة الفلسطينية في المؤتمرات الدولية بتقديم خطاب بليغ مُحكم، دافعاً عن الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني تحت الإحتلال وفي الشتات.

■ وكم كانت تهوى أن تزين خطابها بسرد أسماء الرموز النسائية الفلسطينية، من الشهيدات والمعتقلات، فذاكرتها الحادة تختزن كل الأسماء المناضلة المضيفة، كما تختزن أبيات الشعر المقاوم – والمقوى منه على وجه الخصوص – إضافة إلى تواريخ ووقائع نضالية ذات دلالة تستند إلى المراجع الأشد وثوقاً.

وإلى جانب كل هذا، كانت عصام عبد الهادي تتابع مع قيادة وكوادر الإتحاد كل الشؤون والشجون المتعلقة بالإتحاد العام للمرأة الفلسطينية منذ تأسيسه عام 1965: الاجتماعات، المؤتمرات ومتابعة حل المشكلات، والبناء على الإنجازات، وبلورة أسلوب تلقي الصدمات وما أكثرها، عندما يتعلق الأمر بظرف موضوعي خارج عن الإرادة الوطنية؛ واستمرت في الإضطلاع بمسئولياتها على رأس الإتحاد حتى انعقاد مؤتمره الخامس في العام 2009، حيث سلّمت الأمانة، دون أن تبارح ساح العمل الوطني والاجتماعي إلى أن وافتها المنية.

■ إلا أن ما لا يعرفه كثيرون، هو ما قدمته الراحلة بصمت وتكتم شديدين على الصعيد الإنساني نتيجة الكوارث التي حلت بالشعب الفلسطيني منذ وقوع الاحتلال. فقد كانت تعتبر كل هذه المفردات الإنسانية، جزءاً لا ينفصل عن النكية الوطنية الفلسطينية، ففتحت بيتها ليس للاجتماعات السياسية والتنظيمية فحسب، وإنما لكل من قصدها طالباً مساعدة لعلاج، أو تعليم طالب، أو إسعاف عائلة فقيرة، ولكن الإسناد الأهم الذي قامت به على هذا الصعيد هو تأمين مبالغ من مالها الخاص لحماية منازل مقدسية من المصادرة عندما كان يقصدها المعارف ويشكون لها عجزهم عن دفع الضرائب الباهظة التي فرضها الاحتلال بهدف إخلائهم ومصادرة بيوتهم.

■ ظلت عصام عبد الهادي عنواناً راسخاً وجامعاً لتعددية الإتجاهات في الإتحاد العام للمرأة الفلسطينية، عقوداً من الزمن، كما أجمعت عليها مكونات الهيئات النسائية في الأردن التي تشكلت عام 1982 إثر الاجتياح الإسرائيلي للبنان واستهداف تصفية المقاومة الفلسطينية.

وهكذا كان بيتها الدافئ شاهداً على الاجتماعات التي أفضت إلى تنظيم عشرات الاعتصامات والمسيرات والوفود لنصرة القضايا الوطنية والقومية، وضمت رموزاً نسائية أردنية: «هيفاء البشير، سهام القاسم، رباب النابلسي، إميلي نفاع، وجد الفايز، دعد معاذ، ليلي نفاع، سلوى زيادين، أمنة الزعبي وانتصار جردانة»، وكثيرات غيرهن.

■ قدمت الهيئات النسائية التي كانت تضم عشرات الرموز النسائية المناضلة، وانطلاقاً من دارة «أم فيصل» التي كان يؤمها الجميع، قدمت هذه الهيئات إسناداً سياسياً ومادياً مؤثراً ومنظماً أثناء الإنتفاضتين الأولى والثانية في الأرض الفلسطينية المحتلة، ومثله إسناداً للشعب العراقي أثناء الحصار، وللشعب اللبناني أثناء العدوان الإسرائيلي المتكرر، كما كان للرموز النسائية العربية المناضلة موقع واهتمام بالغين لدى الراحلة الغالية، فلم تدع مجالاً للظروف القاسية بأن تُمتنن كرامتهن الإنسانية والوطنية.

■ «أم فيصل» طاقة وطنية وأخلاقية دافقة لا تنضب، لم تعرف التوقف في منتصف الطريق ولم تنهها ظروفها الصحية عن مواصلة العمل النضالي، وفي الأشهر الأخيرة التي سبقت إنعقاد المؤتمر الخامس للإتحاد، كانت تبدو متعبة، وعندما كنا نستوضح حالها، كانت لا تقصح وتكتفي بإجابات مقتضبة: «سليمه إن شاء الله، بسيطة..»، ثم تتابع إدارة الاجتماع، أو المهمة التي كانت بصدها.

على مدى سنوات جميلة طوال، تشرفت بالعمل معها والتعلم منها سواء في الإتحاد العام للمرأة الفلسطينية، أو في الهيئات النسائية في الأردن، ولن أنسى تلك الصباحات الكثيرة وأنا أتلقي – برضا واعتزاز - مكالماتها في وقت مبكر جداً بصوتها المميز من أجل ترتيب إجتماع أو تحرك شعبي ما...

كان نشيدها الأعز في المسيرات والاعتصامات «موطني...»، فما أن تطلق صوتها حتى ينشد معها الجميع، أما قصيدتها الأعز فكانت: «يا ظلام السجن خيم...»، والهتاف الأغلى الذي توجه به النساء في المسيرة كان: «من عمان إلى جنين .. شعب واحد لا يلين».

■ لم تتوقف «أم فيصل» عن خوض النضال يوماً، ولم تستدر إلى الخلف أو تلقي بالاً للصغائر، لأن القضية الوطنية لديها فوق كل الإعتبارات. أما عندما أبلغتنا إعتذارها عن استقبال الاجتماعات والملتقيات في بيتها، فقد أدركنا أن قلبها الكبير قد أصابه الوهن، وأن مرحلة جديدة قاسية في حياتنا قد حلت محل أخرى، وأذكر كم كان وقع الخبر علينا صاعقاً، كأننا غفلنا عن دورة الزمن، أو لا نريد أن نصدق أن كل هذا البهاء الذي غمرتنا به سيتوقف، وهذه الروح الوثابة بدأت تخبو.

■ سأضيف لما كتبه ابنه الصديقة د. فيحاء عبد الهادي، بأن عائلتها الكريمة كما عرفتها كانت أيضاً ظاهرة إستثنائية، وسبق رفيق عمرها الأستاذ قاسم عبد الهادي مصدر إعتزاز لنا جميعاً، إذ ندر أن نجد أو نسمع عن مثله زوجاً وشريكاً مسانداً وأباً عطوفاً بكل الصفات الحضارية والثقافية والإنسانية التي عرفناها، فالعائلة بكل أفرادها تدور في فلك الوطن ولا تخرج أبداً عن مساراته ومستحققات قضيته العادلة.

■ أيتها الغالية «أم فيصل»؛ نحمل بعدك عهداً، وثقة لا تنتزع بالنصر، ونمتليء من محبتك الغامرة للجميع ونقتفي أثر إشرافتك التي لا يخبو وهجها أبداً... ونبذل سعيًا روحياً ونفسياً للتكيف مع حقيقة غيابك. وكلنا ثقة أنك لن تكوني وحيدة في دار الحق، فالشهيدات اللاتي ملأن القلب والوجدان، ربما يكن في الإنتظار، ورفيقات دربك المناضلات اللاتي سبقنك الرحيل، يتلهفن ملاقة القائدة والأم والأخت الغالية: يسرى البريري، سعادة الكيلاني، سميحة خليل، أميمة القسام، سهام سكر، جميلة صيدم، إنعام عبد الهادي، نهاية الجبوسي، كلينص خوري، مها نصار وهناء صيام. بعدك نتمسك بالأمل الدائم بالنصر، ونحفظ تراثاً من الإنجاز، ومجداً وطنياً وإنسانياً لا يُنسى. ■

عبلة أبو علبة
آب / أغسطس 2013

نهاية محمد .. حكاية شعب وسيرة وطن 1948-2015

■ الابنة الرابعة بعد اعتدال وعادل ووداد لأبيها مصطفى محمد الآتي من قرية لوبيا الجليلية إلى مدينة طبريا الكنعانية. ولأمها سعدة خليل العبد المقيمة مع عائلتها فيها. عام النكبة وُلدت، حيث اقتُلعت الشعب والممتلكات وتشرد الناس، وتبددت الشخصية الوطنية وانهدَّ النسيج وتوزع الجمع كله. حملتها النكبة إلى مخيمات لبنان، فسوريا فكانت الطفولة والشباب ونشوء الوعي الأول وبدء تشكل الشخصية. نهاية محمد: تُعرف نفسها بأنها ابنة لغتها وبيئتها، بنت النكبة... فالعودة إلى طبريا ولوبيا الجليلية وبلد الشيخ حيفا، وإلى فلسطين ... وتستدرك نهاية أن العودة حق لنا يحميه ويبرره واجب وكفاح العمل من أجله.

تشكل وعيها بمعرفة أسماء الأماكن والقرى التي مرّت بها قوافل المهجرين قسراً من بلادهم وبمعرفة المخيمات التي عاشت وأحبت وعملت فيها ... اليرموك وجرمانا والسبينة ... فأيقنت أنها وعائلتها من اللاجئين الفلسطينيين الذين شردتهم النكبة إلى الديار البعيدة وأن اللاجئين كثر، وأن المخيمات وأحزمة الفقر حول عواصم العرب أماكن إنتقالية للعودة إلى فلسطين.

■ في المكان الجديد نما هم العودة ورافقها حتى الرحيل الأبدى. إنها مرحلة الشعور وتشكل العاطفة الأولى تجاه اللاجئين وتجاه الفلسطيني والآخر. تعرفت نهاية مبكراً على القوميين والناصرين وسمعت بالفدائيين وحملت ذلك في مراحلها الدراسية المختلفة ووجدت نفسها مع غيرها في لجان الدفاع عن الوحدة العربية. برزت لاحقاً ميولها الأدبية واهتماماتها بمطالعة الكتب والدراسات والقراءات لساطع الحصري والكواكبي وعازوري، واهتمامها بالأدب العالمي وروايات «عشرة أيام هزت العالم» و«متى تشرق الشمس يا رفيق»، بذلك لفتت نظر المعلمة والإدارة المدرسية والأصدقاء «حيث كانت الثقافة والمعرفة والتعليم تعني مكانة وأهمية إجتماعية وشخصية»، كما تقول نهاية. أصبحت نهاية محمد رئيسة اللجنة الثقافية ومسؤولة عن مجلة الحائط المدرسية في ثانوية البنات الأولى في دمشق. وصارت محور حديث الطالبات وأصبحت القيادة غير الرسمية للمدرسة ومجال إفتخار واعتزاز الفلسطينيات والقوميات معاً، وصارت محط أنظار الجميع واكتسبت سمعة الفلسطينية التي ترفع رأس شعبها كما قالت بعضهن لاحقاً في مرحلة الجامعة والحياة العملية.

■ إعتزت نهاية محمد بهويتها اللاجئة والحالمة بالعودة وهي ابنة الأسرة الفقيرة والمُعالة من قبل أمها العاملة في شركة الصناعات الغذائية. جمعت نهاية محمد بين الدراسة الثانوية والعمل في شركة «سيرونيكس»، مثل الكثير من طلاب وطالبات الثانوية، لتوفير مصروفاتها للعام الدراسي الجديد فأصبحت الطالبة والعاملة معاً، واكتسبت مواصفات ومزايا وقيم العمل كالإنضباط والتعاون والعمل الجماعي، ونما لديها الحس الطبقي والشعور بمصلحة الجماعة. فإذا كانت حكايا الأم والأشقاء والوالد عن لوبيا وطبريا والتهجير القسري، وحكايا الأقران والجيران مصدر وعيها الأول، فإن انطباعات الحارة والمدرسة واللاجئين والمخيم قد شكلت بذرة الوعي الوطني العام، عن فلسطين وعن العودة.

وإذا كان التعليم والبيئة والعمل، شكل لها الوعي الإجتماعي، فإن أخبار إنعقاد المؤتمر الأول للإتحاد العام للمرأة الفلسطينية في القدس، وأخبار تكليف القمة العربية لأحمد الشقيري ونشاطاته والمؤتمر الأول لمنظمة التحرير الفلسطينية، وافتتاح مكتبها في دمشق، دفعها مع نشطاء الدفاع عن الوحدة والحالمين بالعودة إلى فلسطين، للإحتكاك بمكتب المنظمة، والمشاركة المبكرة في النضال الوطني، وفي العمل المنظم من أجل العودة. وشكل ذلك لنهاية، مدخلاً للتعرف على الرائدات الأوائل في سوريا والعمل على تأسيس فرع الإتحاد العام للمرأة في سوريا بقيادة سعادة الكيلاني، وزميلاتها. وبما ساعد ومكّن من العمل على عقد المؤتمر العام الثاني في بيروت، أوائل السبعينيات، الذي تشكل من فرع سوريا وعدد آخر من فروع الإتحاد في البلدان العربية. وأصبحت الراحلة عضواً في الأمانة العامة مع رائدات مناضلات وطلبيات، بعضهن في عمر أمها، مما أتاح لها فرصة التعلم منهن والإطلاع على تجارب ونجاحات وإخفاقات متعددة، وسّعت معارفها وصقلت تجاربها وأثرت بحياتها العملية والنضالية تأثيراً كبيراً وإيجابياً.

■ جمعت نهاية بين التزامها وعملها الوظيفي في التربية، كمعلمة للرياضيات في مدارس مخيم درعا ومدرسة فرادة في مخيم السبينة، وبين مهماتها الإتحادية في الأمانة العامة وفي لجنة العلاقات الداخلية للإتحاد، مع مهمات عامة وطنية ونضالية أخرى في الجبهة الديمقراطية وفي المنظمة النسائية الديمقراطية الفلسطينية في مخيمات سوريا. وتزاملت مع القادة النسويات كعصام عبد الهادي وزميلاتها. واستحقت الراحلة كثيراً من شهادات التقدير والثناء على عملها ونجاحها التربوي والمهني وعلى تطوعها ومشاركتها النشطة والفاعلة في العمل الوطني والاجتماعي النقابي النسائي.

■ في الثالث الأخير من عقد السبعينيات، كُلفت نهاية مع غيرها من المؤنات بقضية المرأة وبورها في تقدم المجتمع ونهوضه، ببناء المنظمة النسائية الديمقراطية في مخيمات سوريا، بعد أن كان قد بدأ العمل على بناء إتحاد لجان العمل النسائي داخل الوطن في منتصف السبعينيات تقريباً. وتزاملت الراحلة في المهمة الجديدة مع ناشطات مبعديات من فلسطين والأردن، ومع لاجئات المخيمات في سوريا. شكلت نهاية مع زميلها عصام الفايز والشهيد بشير زقوت، المكلفان ببناء منظمة الشبيبة الديمقراطية الفلسطينية، ومع الراحل هشام أبو غوش أمين إقليم سوريا في حينها، رباعياً قيادياً جماهيرياً، كان موضع فخر واعتزاز كل من عمل معهم في إنشاء ذلك البناء الجماهيري المتين. ولعبت الراحلة بتوجيه هشام أبو غوش دور «الناظم» المبدع في توحيد وتنسيق البرامج والخطط والجهود، والموحدة للإرادة والعمل على مستوى القيادة والقاعدة وعموم التنظيم، وربطت بين النشاط والتنظيم وبين الهيئات وإطارها الصديق في العمل والحشد والتوسع، وتوج هذا الدور بالنجاح التام. وغداً بذلك إقليم سوريا للجهة الديمقراطية، ركيزة للنضال الوطني الفلسطيني وضمانة لحماية المنظمة وبرنامجهما، في مرحلة بالغة الصعوبة والتعقيد.

■ لعبت أم الوطنية الفلسطينية نهاية محمد، من خلال عضويتها القيادية وحكمتها الإدارية وديمقراطيتها، دوراً بارزاً وهاماً في مواجهة محاولات العبث بمنظمة التحرير، وبالحفاظ على القرار الوطني المستقل. تعرضت نهاية للإبعاد أواخر العام 1985، وعادت بعد ثلاث سنوات، عندما نجح الشهيد خليل الوزير في إعادة المنظمة برمتها إلى دمشق، لتشييعه ودفنه في مقبرة الشهداء في اليرموك إثر استشاده في تونس. وعملت خلال فترة إبعادها في لبنان على إعادة تعزيز وحدة فرع لبنان للإتحاد العام للمرأة الفلسطينية، وفي فرع لبنان للمنظمة النسائية الديمقراطية، وتعرفت على مختلف المخيمات الفلسطينية، مضيئة خبرتها وتجربتها المكتسبة في مخيمات سوريا، إلى خبرة وتجربة مخيمات لبنان. وتحملت الراحلة المناضلة، الحاملة بالعودة والعاشقة لتراب الوطن وللناس، بعد عودتها من الإبعاد، مسؤولية إقليم سوريا منتصف 1988، ونجحت في هذه المسؤولية التي استمرت فيها حتى العودة إلى الجزء المتاح من الوطن مع نهاية الإنتفاضة الأولى.

■ على أرض الضفة بعد العودة ظهر يوم 26/8/1994، وضعت الراحلة، برنامجاً خاصاً أطلقت عليه اسم «إعرف وطنك»، تعرفت من خلاله على جميع المدن والبلدات والمخيمات، على طرقها ومداخلها ومخارجها، وخبرت الطرق الالتفافية والبديلة بسبب الحواجز والإغلاقات الدائمة. ونجحت مع زميلاتها في توحيد جهود فروع وأقسام الإتحاد في الداخل والخارج لخدمة قضية المرأة والقضية الوطنية العامة، ذلك الدور الذي نجح فيه الإتحاد العام للمرأة. وتزاملت الراحلة، في العمل النسائي الموحد في الضفة وغزة، مع الرائدات سميحة خليل وزميلاتها، ومع مجموع الأطر والمراكز والهيئات النسوية، وقادت لجنة العلاقات الداخلية لنشر وتوسيع أطر الإتحاد وقواعده واستكمال هياكله في الضفة وغزة.

■ لعبت نهاية دوراً بارزاً في تشكيل لجان وائتلافات تحديث وتطوير التشريعات والقوانين المتعلقة بالمرأة. حيث كانت منسقة لعمل اللجنة الوطنية لقانون الأسرة التي تضم الإتحاد العام للمرأة الفلسطينية ومجموعة من المؤسسات النسوية والحقوقية. وشاركت في نقاشات تعديل وتحديث قوانين العقوبات والميراث وتنظيم الأسرة والنفقة، وقانون الطفل وحماية المرأة من العنف وإنهاء أشكال التمييز ضدها، بتوجه واضح وتصميم نحو عصريته وديمقراطية التشريع الخاص بالمرأة وبحقوقها ومكانتها. مثلت نهاية محمد، الإتحاد العام للمرأة الفلسطينية، في العديد من المؤتمرات والمحافل والنشاطات العربية والإقليمية والدولية عبر العالم. إلى أن مُنعت في العام 2005 من السفر وبشكل مشدد من قبل الاحتلال الإسرائيلي حتى رحيلها.

■ نهاية: كنت وستبقين في العقول وفي الأذهان لدى أسرته وعائلته ومحبيه، ومن عملوا بجانبك وتحت قيادتك وتزاملوا معك، وستكرسين لدى أبناء جيلك والأجيال اللاحقة التي تتلمذت وتعلمت وتربت على

يديك، ميلاد قضية المرأة بعد النكبة، وستنيرين لمن رافقك رحلة نضالك الطويل والممتد، آرام وهداية الدرب للعودة إلى أرض الآباء والأجداد. ستبقى سيرتك ومسيرتك يا سيدة العطاء والمبادرة، ويا مدرسة الائتلاف والوحدة، مصدر إلهام واقتدار للمرأة الفلسطينية والعربية، نسير من بعدك على هدي خطاك، وهدي المباديء والقيم التي أرسيت بتجربتك. نسير على طريقك لتحقيق أهداف العودة والتحرر والاستقلال والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان، الأهداف، التي حلمت وكافحت ورحلت من أجلها. وسنبقى نحب الحياة ونعشق الأرض كما كنت أم الوطنية، نهاية محمد، ميلاد القضية وهداية العودة ■

محمود خليفة – أبو أمجد

تموز/ يوليو 2015

في وداع نهاية .. نلمس بصماتها في كل المجالات 1948-2015

■ تتوقعون مني أن أجدد لها عهد الوفاء لمسيرتها الكفاحية؟ سأفعل. ولكن قبل ذلك دعوني أطلق أنين لوعة من صميم مهجة الإنسان الكامن في أعماق كل منا، القادر أن ينوح ويندب مرارة الفقد، قبل أن يعلموه كيف يخفي آدميته خلف أقنعة الرخام المسماة صموداً وصلابة.

نحن نرى الشهب تخر مبرقة من السماء نحو الأرض، فتتلاشى. أما النجوم اللامعة فترتقي من الأرض بمسار متوهج إلى السماء حيث تستقر وتبقى. ونهاية واحدة من هذه النجوم، بل من أكثرها وهجاً وألقاً.

■ هي علم من أعلام هذا الجيل، جيلنا، جيل النكبة والإنطلاقة: الجيل الذي فتح عينيه على مأساة النكبة والذي صنع، رداً على المأساة، مجد الإنطلاقة.

هو جيل يمضي. رموزه تفارقنا تباعاً الواحد تلو الآخر. وكل منهم، وهو يرحل، ينتزع معه تلك القطعة من الفؤاد حيث كان يقطن في حياته. فيا ويل قلوبنا الممزقة نحن الذين أخطأنا المنايا من أبناء هذا الجيل، ونحن

لا نملك سوى أن نكف دموعنا وأن نعلل النفس بأن ذكراهم ستبقى خالدة في قلوبنا. نعم.. بلا شك. ذكراهم ستبقى خالدة في قلوبنا، ولكن على شكل جروح لا تندمل وفراغ لا يمكن ملؤه.

■ الآن ونحن نودع نهاية، نستلهم النموذج الذي مثلته، بما اتسمت به من تصميم وقوة إرادة ومثابرة وإصرار يصل حد العناد، نستعين به لقهر لوعة الحزن على فراقها، ونقتدي به لصون الصرح الشامخ الذي ساهمت بدور رئيس في بنائه، لبنة بعد لبنة ومدماكاً إثر مدماك، حتى بات يناطح السماء براية حمراء خفاقة.

■ هي قبل كل شيء مناضلة حزبية. إنهمكت بكل طاقتها في بناء الحزب وأبدعت في هندسة وتدعيم أركانه. وتركت بصماتها في مختلف مجالات العمل الحزبي: في البناء والتنظيم والتتقيف والتأهيل وتدريب الكادر وصقل مواهب القيادات. وتلمس نتائج جهدها في مختلف الساحات وبخاصة في مخيمات سوريا، حيث قادت تنظيم الجبهة لسنوات حتى عودتها إلى أرض الوطن. أولئك الصامدون اليوم في مخيم اليرموك هم من بين الذين أنشأتهم نهاية وغرست فيهم روح العزيمة والثبات.

■ وهي أدركت أن الحزب يفقد مغزاه ما لم ينغرس في صفوف حركة الجماهير المناضلة من أجل حقوقها. وكما أبدعت في بناء الحزب، أبدعت في تعزيز بنية الحركة الجماهيرية وكانت عموداً من أعمدة الحركة النسوية في البلاد ترجمة لقناعتها أن الحرية والمساواة للمرأة شرطان لا غنى عنهما من أجل حرية الشعب واستقلال الوطن.

سنبقى نرى ونلمس بصمات نهاية في كل مجال من مجالات حياتنا الوطنية، السياسية والثقافية والاجتماعية. وسنبقى نستمد من ذكراها العزم والدأب والتصميم على المضي قدماً بالمسيرة التي كانت هي دوماً في طليعتها، والتي ستبقى روحها نبراساً ينير لنا الطريق. على هذا نجدد لها العهد، عهد الوفاء ■

قيس عبد الكريم - أبو ليلى

تموز/ يوليو 2015

سميحة خليل .. نموذج القيادة في الدور الوطني والعمل الاجتماعي 1923-1999

في مرحلة التأسيس

■ ولدت سميحة خليل في مدينة عنبّا قضاء طولكرم عام 1923، وتعلّمت في مدينة رام الله، وبدأت نشاطاتها على الصعيد الاجتماعي والوطني في مدينة البيرة منذ أواسط خمسينيات ق 20، وأسست «جمعية الإتحاد النسائي العربي» وفي بداية ستينيات ق 20، وساهمت في تأسيس الإتحاد العام للمرأة الفلسطينية، كما ساهمت في التحضيرات التي بادرت لها القوى والشخصيات الوطنية والنقابية والاجتماعية في مختلف التجمعات الفلسطينية لإقامة منظمة التحرير الفلسطينية عام 1964؛ وكانت عضواً مؤسساً في أول مجلس وطني فلسطيني عقدته المنظمة بنفس العام في مدينة القدس، وذلك بصفتها أمينة سر الإتحاد العام للمرأة الفلسطينية.

■ بعد احتلال إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة عام 1967، تكرست صورة سميحة خليل على المستوى الوطني الفلسطيني باعتبارها شخصية قيادية وطنية مناهضة للإحتلال، وناشطة سياسية واجتماعية لعبت دوراً رائداً في المسيرة النضالية للشعب الفلسطيني، حيث كانت عضواً بارزاً في قيادة «الجبهة الوطنية الفلسطينية» في الأراضي المحتلة التي تشكّلت عام 1973، والمكونة من إئتلاف وطني عريض ضم ممثلين عن كافة الفصائل والأحزاب والنقابات المهنية والعمالية والشخصيات الوطنية المستقلة. وقد اعتبر المجلس الوطني الفلسطيني الذي انعقد في القاهرة في آذار/ مارس 1977 «الجبهة الوطنية» بمثابة الذراع السياسي لـ م.ت.ف في المناطق المحتلة.

■ لعبت سميحة خليل دوراً بارزاً في تشكيل وتفعيل «لجنة التوجيه الوطني» عام 1978، التي أصبحت الهيئة القيادية العليا للحركة الوطنية في المناطق المحتلة، وذلك بعد قيام الإحتلال الإسرائيلي بإعلان الجبهة الوطنية تنظيمًا معادياً وغير مشروع وقيامه باعتقال عدد من قياداتها. وكانت «لجنة التوجيه الوطني» قد شكّلت في حينه من رؤساء البلديات المنتخبين في الضفة الغربية وقطاع غزة بالإضافة لمندوبين عن الأحزاب والفصائل والنقابات المهنية والمؤسسات الوطنية. وحاولت «لجنة التوجيه الوطني» تكريس علنية نشاطاتها واتخذت من مُجمع النقابات المهنية في القدس مقراً لها؛ ولكن نتيجة للدور النضالي الذي لعبته اللجنة وتبنيها لبرنامج م.ت.ف، فقد أعلنت سلطات الإحتلال تلك اللجنة القيادية أيضاً هيئة خارجة عن القانون، وقامت باعتقال وإبعاد وفرض الإقامة الجبرية على معظم أعضائها.

■ واصلت سميحة خليل رفع راية م.ت.ف عالياً داعيةً إلى مناهضة الإحتلال وتكريس الهوية الوطنية للشعب الفلسطيني وتحقيق حريته واستقلاله، ما أدى إلى اعتقالها على يد قوات الإحتلال مرات عديدة. وفي العام 1980 فرضت عليها سلطات الإحتلال الإقامة الجبرية المنزلية لمدة سنتين ونصف السنة، ومنعتها بعد ذلك من السفر إلى خارج الضفة الغربية؛ ولعبت سميحة خليل دوراً بارزاً في قيادة الحركة النسائية والاجتماعية الفلسطينية من خلال رئاستها للإتحاد العام للمرأة الفلسطينية في الأراضي المحتلة، ورئاستها لـ «جمعية إنعاش الأسرة»؛ ومن خلال دورها في اللجنة التنفيذية للإتحاد العام للجمعيات الخيرية في الضفة ■

«جمعية إنعاش الأسرة»

■ كان لـ «جمعية إنعاش الأسرة» مكانة خاصة في قلبها، وتعتبرها بمثابة أسرتها الحميمية، وجمعتها مع عضواتها وموظفاتهن وطالباتها أقوى أوامر المحبة والترابط. وأعطت سميحة خليل من خلال الجمعية جُلَّ طاقتها لخدمة القضية الوطنية ولخدمة المرأة الفلسطينية والأسر الفقيرة وأهالي الشهداء والمعتقلين.

وتشرح سميحة خليل في كتاب مذكراتها⁽¹⁾، كيف اكتسبت «جمعية إنعاش الأسرة» زخماً إضافياً نوعياً على إثر حرب 1967، فتقول: «كان من أكبر المصائب التي استجابت لها الجمعية كارثة ترحيل أهالي قرى اللطرون الثلاث: عمواس وبيت نوبا ويالو، في منطقة رام الله».

وتشرح: «عندما سمعنا بالمأساة التي وقعت في تلك القرى ذهبنا لنرى ما حدث فوجدنا أهالي تلك القرى، ما يزيد عن العشرة آلاف منهم، نساء وأطفال وشيوخ، يهيمنون تحت الأشجار وفي الحقول دون طعام أو غطاء. وعلما من الناس أن بعض كبار السن والمرضى والمعاقين قد دُفِنوا أحياء تحت ركام بيوتهم التي فجّرتها تلك القوات، لأنهم لم يتمكنوا من السير والخروج من بيوتهم إثر الإنذارات التي أطلقتها القوات الإسرائيلية التي احتلت تلك القرى عبر مكبرات الصوت».

■ وتضيف: «عدنا إلى البلد وأخذنا نخبر الناس بما جرى، وننقل لهم صورة ما رأينا، ونستثير همهم للترفع لصالح هؤلاء المنكوبين؛ ولكن معظم الناس كانوا مشغولين بهمومهم، حيث لم يكونوا قد استعادوا بعد وعيهم من الذهول الذي أحدثته صدمة الحرب والإحتلال الإسرائيلي، ولذلك لم يستجيبوا بالشكل الذي يتناسب مع حجم الكارثة لدعوتنا لهم تقديم يد المساعدة. وقدّرنا أن المواطنين لن يستجيبوا إلا إذا رأوا ما حدث بأعينهم. فصرنا ننقلهم بالسيارات والباصات إلى منطقة اللطرون ليروا ما حدث. عندها أفاق الناس، وتفاعلوا مع الوضع، وأخذت المساعدات بالتدفق علينا، من طعام جاهز، ومواد غذائية، وملابس، وأوعية للطبخ. وكنا نحمل كل ذلك ونوزعه على أهالي تلك القرى لسد حاجاتهم المباشرة. ولكننا بعد أيام قليلة تأكدنا أننا لا نستطيع إعالة ما يزيد عن عشرة آلاف نسمة بشكل مستمر، وأن علينا أن نعيد تنظيم أولوياتنا. فقررنا إقامة لجنة أسميناها «لجنة إغاثة المتضررين» ضمت شخصيات وطنية بارزة من مدينتي رام الله والبييرة. وقد تعهد أعضاء اللجنة بجمع التبرعات من الأهالي على نحو منتظم. وأصبحت تلك التبرعات أشبه بضريبة تُجَبى شهرياً من المواطنين حسب مهنة ودخل كل مواطن. وقد إلزم الأهالي بالدفع لمدة سنتين كاملتين، إلى أن أصدر الحاكم العسكري الإسرائيلي أمراً بمنع جمع تلك التبرعات. ومع ذلك فقد إستمر الناس بتقديم المساعدات العينية».

■ وكانت تلك المرحلة الصعبة بداية نهوض واسع لـ «جمعية إنعاش الأسرة» التي نمت من مؤسسة صغيرة لها مقر يتكون فقط من غرفتين صغيرتين وتعمل فيها موظفة واحدة وثمانية متدربات، إلى مؤسسة ضخمة لها ثلاث عمارات، كل منها مكونة من ثلاثة طوابق، يعمل فيها ما يزيد عن مائتين من الموظفين والموظفات وما يزيد عن الثلاثمائة متدربة في مختلف المجالات، وتزيد دورتها المالية السنوية عن المليون دينار أردني، وتقدم خدماتها المباشرة للآلاف من أبناء شعبنا، حيث أصبحت الجمعية تدير برامج تشغيل وتأهيل وبرامج للمساعدة الاجتماعية، وتمتلك مشاريع إنتاجية كبيرة، مثل مصنع المنتجات الغذائية، ومشغل النسيج والتطريز، ومراكز للتأهيل المهني في مجالات: التمريض، والخياطة، والطبخ، وأعمال السكرتاريا، ومهنة التجميل وقص الشعر؛ بالإضافة إلى إقامة دار لأبناء الشهداء والأيتام، ومركز للحضانة وروضة للأطفال، وتفعيل برنامج للتأمين الصحي، وآخر للتبني وبرنامج للمساعدات الطارئة، وآخر للبعثات والقروض للطلاب الجامعيين، بالإضافة لبرامج تعليم الكبار ومحو الأمية.

■ حول شخصية سميحة خليل تقول **فريدة العمد**، صديقة سميحة خليل وزميلتها التي تولت رئاسة «جمعية إنعاش الأسرة» بعد وفاتها: «كانت سميحة خليل امرأة شامخة في نضالها ضد الإحتلال الغاشم، مؤمنة بحقوق الشعب الفلسطيني وثوابته الوطنية في إقامة الدولة الفلسطينية وحق العودة وتقرير المصير. عرفتها صاحبة مبدأ، لا تلين عزميتها أمام غطرسة العدو وشراسته. وأدت مواقفها إلى الزج بها في السجن، كما فرضت الإقامة الجبرية عليها، ومنعت من السفر لزيارة أبنائها، ولكنها لم تتراجع ولم تنتازل».

وتضيف السيدة العمدة: «عملت سميحة خليل من خلال الجمعية على مساعدة المرأة على تخطي حواجز التخلف والجهل والإتكالية، فأقامت من خلال الجمعية ستة مراكز للتدريب المهني للفتاة الفلسطينية كي تؤمن لها مهنة تحميها من ذل السؤال عند الحاجة، وتمنحها دخلاً يمكنها من رعاية أسرته خاصة في ظل غياب الأخ أو الزوج أو الإبن المعتقل أو الشهيد. وكانت تردد دائماً أن تعليم الفتيات مهناً مختلفة لم يكن الهدف الوحيد للجمعية، بل من أجل خلق الفتاة الواعية وصقلها لتكون اللبنة الأولى الصالحة في بناء الدولة الفلسطينية المستقلة».

وعن دورها الوطني تقول السيدة العمدة: «لقد تجاوز نشاط سميحة خليل عملها في جمعية إنعاش الأسرة، فقادته الحركة النسائية بصفتها رئيسة إتحاد عام المرأة الفلسطينية _ فرع فلسطين، وكانت الجمعية هي المركز الذي يجتمع فيه أعضاء الإتحاد وتنطلق منه الدعوات للإضرابات والمظاهرات والإعتصامات، وكذلك إصدار البيانات ضد الإحتلال. وقد وقفت بصلابة لتحدي الإحتلال وقراراته الظالمة خصوصاً عندما أصدر قراراً بإغلاق الجمعية لمدة سنتين وصادر الكثير من ملفاتها ووثائقها المهمة»⁽²⁾.

■ وأما **أمينة العيسوي** عضو الهيئة الإدارية لـ «جمعية إنعاش الأسرة»، فتقول: «لم تترك سميحة خليل ميداناً وطنياً إلا وخاضته، واعتمدت العمل الخيري رديفاً للعمل الوطني تخفف به عن البائسين والمتضررين من الإحتلال. كانت تسمع أكثر مما تتكلم وتفكر وتمحص، وبعد ذلك تأخذ قراراتها، وكانت تباشر بالعمل لتنفيذ أية فكرة عملية تلوح لها وربما يراها البعض صعبة التحقيق، فكانت لا تتردد ولا تصغي للمحيطين فتمضي بإصرار للوصول إلى ما تصبو إليه من عمل وطني أو خير، لا تتنهيها العقبات والصعوبات وضيق الحال عن الأداء، حساسة لاحتياجات الشعب ويعز عليها أن تراه ذليلاً ومهاناً، وكان هذا الإحساس مبعث تأسيس جمعية إنعاش الأسرة»⁽³⁾.

■ وتقول **سعاد عبد السلام**، مساعدة سميحة خليل في الجمعية: «كانت سميحة خليل تهتم إهتماماً غير عادي بالطلاب الجامعيين لأنهم جيل المستقبل وقادة الشعب الفلسطيني في المجالات المختلفة. وكانت تحض الطلاب الذين تساهم الجمعية في تغطية نفقات دراساتهم الجامعية على الدراسة والمثابرة والتفوق حتى يدعموا غيرهم من الطلاب المحتاجين بعد تخرجهم وعملهم. وتضيف السيدة عبد السلام: في أحد الأيام حضر أحد الخريجين، وكان قد تخرج طبيباً، وأبدى استعداداً لتعليم طالب محتاج، بالرغم من أنه لم يعمل بعد، فشكرته وسألته عن أسرته، ولما عرفت أن عدد أفراد عائلته عشرة وأن والده مزارع، وله أخ سيني التوجيهي هذا العام، قالت له إذهب وأنفق على أخيك وساعد والدك، وبذلك تكون قد ساعدت عائلة أخرى»⁽⁴⁾.

في مواجهة الإحتلال

■ ويقول الباحث **نبيل علقم**، عضو مركز الأبحاث الإجتماعية والتراث الشعبي الفلسطيني: «بمبادرة من سميحة خليل تَكون مركز «التراث والمجتمع الفلسطيني» عام 1972، وأصدر أول دراسة في التراث باسم «قرية ترمسيا - دراسة في التراث الشعبي» عام 1973. وفي عام 1974 صدر العدد الأول من المجلة الفصلية «التراث والمجتمع» لُتَعْنَى بدراسة التراث الشعبي الفلسطيني».

ويضيف نبيل علقم: «كانت سميحة خليل تمتلك قدرات كبيرة، فهي مناضلة قيادية مخلصه، ذكية، صلبة ولبقة. وكانت تستعمل هذه الصفات حسبما يتطلبه الموقف. وعلى سبيل المثال في أثناء الإعداد لمهرجان عام 1978، رافقتنا السيدة سميحة خليل إلى الحديقة العامة لبلدية البيرة، حيث كان المهرجان سيقام بعد عدة أيام، وذلك لتطمئن على كافة التفاصيل المطلوبة بما فيها دخول الجمهور وأماكن الجلوس وفقرات المهرجان من عروض وأداء وغناء، ومعرض التراث الشعبي والمُضافة وسواها».

«وفي أثناء وجودنا في الحديقة دخلت مجموعة كبيرة من الضباط والجنود الإسرائيليين. قال أحد الضباط: ماذا تفعلون هنا؟ فأجابت السيدة سميحة: لقد أخذنا إذنًا لإقامة المهرجان. فرد عليها الضابط: لقد أخذتم إذنًا لإقامة حفل فولكلوري، ولكنك لم تذكرتي أنه سيقام هنا. وأخذ بإطلاق التحذيرات من مخالفة الأحكام العسكرية كالتحريض وإثارة المواطنين».

«وبعد عدة أيام، ولدى إقامة المهرجان، حوصرت حديقة بلدية البيرة من قبل قوات كبيرة من جنود الاحتلال وضباطه، حيث قامت بمراقبة تدفق جموع المواطنين للمكان قبل ساعتين من بدء المهرجان، ولاحظت إكتظاظ ساحات الحديقة بأعداد غفيرة من الجمهور المتحمس من مختلف الأعمار، حيث تسلق العديد من الشبان الجدران والأشجار المحيطة بالحديقة. وفي كلمة الافتتاح وأمام الجمهور الحاشد رحّبت سميحة خليل بالضيوف من أبناء شعبنا ومن كافة الفعاليات الوطنية الذين حضروا من كل أنحاء فلسطين وأعلنت: «إن الشعب الفلسطيني لن يستسلم وأن الاحتلال إلى زوال»، وما أن بدأت باقي فقرات المهرجان حتى كان الجمهور من رؤساء بلديات وممثلي النقابات المهنية والصحفيين والقيادات النسائية والسياسية والشبابية، يهتف مع كل فقرة أو مشهد يشيد بالثورة وبالفدائيين وبفلسطين، ويندد بالاحتلال وعملائه. فجن جنون جنود الاحتلال وقاموا باقتحام المهرجان وأخذوا يطلقون النار بكثافة شديدة مما أدى إلى انفضاض المهرجان ووقوع العديد من الإصابات بين المواطنين»⁽⁵⁾.

■ وتقول سميحة خليل في مقابلة صحفية «إنها لا تطيق الإسرائيليين. وأن أعضاء «حركة السلام الآن» هم أطفال لطيفون، ولكنهم عديمو الأهمية. وأن القوى التقدمية في إسرائيل تحاول العمل ولكن بدون جدوى، فغالبية الشعب الإسرائيلي بالنسبة لها هم إما مؤيدين لبيريس أو لبيغن، وكلاهما ضد أي حل مع الفلسطينيين». وتضيف: «بعد عام 1948 أصبحت لاجئة بعد أن هاجرنا من المجدل إلى غزة، وقد رأيت النساء الفلسطينيات اللاجئات وهن يبعن أساورهن الذهبية، وبعد ذلك يبعن أثواب الأفراح المطرزة في سبيل الحصول على لقمة العيش». ومنذ ذلك التاريخ، تقول سميحة خليل: «قررتُ أن أحول بنات شعبي من متسولات إلى فتيات مستقلات، لا يمددن أيديهن للغرباء». وتضيف: «في البداية لعنت أوروبا وأمريكا، وبعد ذلك لعنت العرب، ثم عتبت على الفلسطينيين».

وتقول: «إن الذنب يقع علينا نحن الفلسطينيين، فنحن الذين يتوجب علينا العمل، ويتوجب أن نعتمد على أنفسنا وليس على الآخرين». وهي تبدي أشد الإعجاب بجمال عبد الناصر، وتقول: «لقد علّمني جمال عبد الناصر الوطنية، ومعنى أن أكون عربية ومعنى الإخلاص لشعبي والإخلاص لوطني إن علينا أن نتعلّم من فلسفة ثورته»⁽⁶⁾.

■ وأما دالية كاريل مراسلة مجلة «مونتين» الإسرائيلية فتصف سميحة خليل بالقول: «إمرأة سيماءها بسيط وشعبي وإلى حد ما مضلل؛ وشخصيتها مؤلفة من مزايا تبدو في الظاهر متناقضة؛ فهي طموحة جداً، وصلبة كالفلولاذ، ولا تعرف الرحمة، معتزة بنفسها، ومتكبرة، ولا تعرف المساومة، وفي نفس الوقت رقيقة القلب، وقائدة نموذجية ومثالية، شجاعة جداً، وقوية الشخصية، ومستقيمة. وهي من نمط الفلسطيني الذي لا يرغب الارتباط بإسرائيل. لذلك فإن كل ما تقوله هو رسالة فلسطينية طاهرة. وهذا هو سر تفوقها وتأثيرها. إنها تمثل صورة لقوة سياسية نشأت من خليط من العصبية القومية والرغبة في مساعدة المضطهدين والضحايا». وتصفها أيضاً بأنها: «إمرأة فلسطينية ذات شهرة مذهلة، تنشط من خلال الجمعيات الخيرية، ومن خلال لجنة التوجيه الوطني ذات الصلة السياسية البارزة».

■ وتساءلها الصحفية الإسرائيلية: «هل أنت خائفة؟ وتجب: «أنا لا أخاف من أي شيء، ولا أخاف من أحد؛ خوف قليل تسرّب إلى قلبي بعد محاولة إغتيال رؤساء البلديات - كريم خلف، وبسام الشكعة، وإبراهيم الطويل - وهذا شيء طبيعي؛ وأنا لم أخف على حياتي، بل خفت على زوجي المريض الذي سيبقى وحيداً، لأن أبناءنا ممنوعين من القدوم إلى الضفة الغربية للعيش معنا».

وعن «جمعية إنعاش الأسرة» تقول الصحفية الإسرائيلية: «تستخدم الجمعية 64 موظفة بوظيفة كاملة، أما باقي عضوات الجمعية فهم جميعهم متطوعات». وتقول سميحة خليل عن موظفات الجمعية وأعضائها: «نحن جميعنا روح واحدة في أجساد الجميع، وهذه هي قوة الجمعية وانطلاقها المتجددة».

■ وتقول المراسلة الصحفية: «يبدو أن كل طفل في الضفة الغربية يتعلم بأن مهمته هي مقاومة إسرائيل. ففي رياض الأطفال التابع لجمعية إنعاش الأسرة تقوم ريماء ترزي وهي المستشارة المهنية لبرامج تعليم

الأطفال من سن 3-4 سنوات بتعليمهم نشيداً ألفته خصيصاً من أجلهم، حيث ينشد الأطفال نشيد العصفور وهم يمسكون بأيدي بعضهم البعض: نياك يا عصفور، أنت حر طليق بينما أنا مضطهد وحزين، علمني يا عصفور كيف أطيّر فوق أزيز الرصاص، علمني كيف أكون حراً. وروت لي ريماء ترزي بأن تلك الأناشيد تهدف إلى تعليم الطفل الفلسطيني حب بلده بشكل إيجابي، وإلى إصلاح الضرر الذي سببه الإسرائيليون. وتضيف ريماء ترزي: إن أطفالنا يعيشون في خوف مستمر، وأنتم الإسرائيليون عليكم أن تخشوا من نتائج هذا الوضع».

■ وتختتم الصحفية تقريرها بالقول: «منذ عام 1978 وسميحة خليل لا تكتفي بالنشاطات الاجتماعية، بل تشارك في عملية تعزيز الثقة الذاتية في الضفة الغربية. وعندما اعتقل بسام الشكعة جرى تنظيم مؤتمرات ومهرجانات للمطالبة بالإفراج عنه. وفي مؤتمر شعبي عُقد في جامعة بيت لحم استُقبلت سميحة خليل كبطلة حقيقية. وعندما إعتلت النصبة وأنشدت: إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر، إنترعت عاصفة من التصفيق المتواصل. وفي نهاية المهرجان، قال محمد ملحم، رئيس بلدية حلحول: «هؤلاء النسوة هن الجمرة، وهن الإحترق، ولسن الرماد الذي تذروه الرياح بعد اشتعاله»■

الانتخابات الرئاسية

■ ولعل أبرز محطة في مسيرتها الوطنية والسياسية وأكثرها إثارة هي إنخراطها عام 1996 في المعركة الانتخابية وخوضها المنافسة على رئاسة السلطة الوطنية الفلسطينية مقابل الرئيس ياسر عرفات، وحصولها على 11% من الأصوات⁽⁷⁾؛ مُكرسةً بذلك تقليداً جديداً وعظيم الدلالة في الساحة الفلسطينية والعربية، ألا وهو قدرة المواطن وحقه في المنافسة على أرفع المناصب السياسية، والأهم قدرة المرأة على خوض المنافسة الانتخابية مثلها مثل الرجل.

وفي هذا السياق تقول **فريدة العمد**: «لعل أهم رسالة بعثتها سميحة خليل عندما رشحت نفسها للانتخابات الرئاسية عام 1996، كانت رسالة مزدوجة تبعث بها للمرأة الفلسطينية من جهة، وللسلطة الفلسطينية من جهة أخرى؛ أما رسالتها للمرأة فقد أرادت أن تقول لها: «عليك التحلي بالجرأة والشجاعة والإقدام فأنت جديرة بنبوء أعلى المراكز»؛ وأما رسالتها للسلطة فتقول: «نريد نظاماً ديمقراطياً يحقق العدل والمساواة بين أفراد شعبنا الواحد، بدعم حق المرأة في الوصول إلى مراكز صنع القرار، وفي المشاركة الكاملة في عملية بناء الوطن»⁽⁸⁾.

■ وتعليقاً على ترشحها للانتخابات الرئاسية عام 1996، كتب عضو اللجنة التنفيذية لـم.ت.ف شفيق الحوت مقالاً في صحيفة «النهار» اللبنانية - 15/1/1996، تحت عنوان «سميحة خليل، أول امرأة عربية تترشح للرئاسة الأولى» جاء فيه⁽⁹⁾: «ليس من شجاع مثل امرأة شجاعة، فكيف إذا كانت هذه المرأة هي سميحة خليل؟... من هي سميحة خليل؟ إنها «المرشح» الوحيدة المنافسة لياسر عرفات على رئاسة السلطة الفلسطينية... هي من رواد الحركة الوطنية الفلسطينية التي لم تكتف بقول «لا» لإسرائيل، وإنما ترجمت هذه «اللا» إلى نضال يومي متواصل دون انقطاع لم تنل منه قسوة الاحتلال وما لاقته منه من أحكام تعسفية وقيود جائرة لم تُثنها رواسب التخلف الاجتماعي ونظرتها إلى المرأة ودورها في الحياة العامة؛ وإنما على العكس من ذلك تماماً، فقد تجوهرت مع المعاناة وازداد معدنها الأصيل لمعاناً، كما أصبحت لبنات جنسها وأبنائه قدوة لمن يريد أن يناضل ويكون على مستوى رسالة النضال: عطاءً وتضحيةً وصموداً».

«لقد سمعت عن سميحة خليل الكثير وعن النشاطات المتعددة التي كانت تمارسها، وبخاصة في مجال الشؤون الاجتماعية من رعاية لليتامى من أبناء الشهداء والمحتاجين والفقراء... ولكن، ليس لهذا أكتب عنها داعياً لدعمها والتصويت لها. أكتب عنها، لأنها أولاً قررت خوض المعركة الانتخابية؛ ولأنها، ثانياً، إختارت أبو عمار منافساً لها. ولكن أين الشجاعة في هذا كله؟ ينبع الرفض الأول لشجاعتها، وهو الأهم، من كونها اتخذت قرارها من موقع المعارض لاتفاقية أوسلو، فجعلت من إلغاء الحكم الذاتي هدفاً من أهدافها في حالة فوزها. وذلك لقناعتها أن اتفاق أوسلو فشل في تحقيق أهداف شعبنا الأساسية: وهي الإستقلال والسيادة

الكاملين؛ ولأن الشعب يريد دولة مستقلة ذات سيادة فعلية، ولأنه لا يمكن تحقيق السلام الدائم والشامل إلا عندما تُرد الحقوق لأصحابها».

«وبهذا الموقف تكون سميحة خليل قد تميّزت بموقفها عن أكثرية المعارضين من فصائل وأفراد، الذين رسا قرارهم على إسقاط الإتفاقية من خلال مقاطعة هذه الانتخابات لا المشاركة فيها ... أما سميحة خليل فارتأت المعارضة من خلال الإشتباك لا الإنفكاك، لا سيما وأن قرار المشاركة لا يشترط القبول بالمسار السياسي ولا الموافقة على اتفاقية أو سلو. وهي بقرارها الشجاع هذا فتحت درباً من دروب المعارضة الإستقلالية التي عرفها المشهد الفلسطيني منذ بداية الحركة الوطنية المعاصرة. وهي تجربة ستبقى مفيدة وموحية؛ وبغض النظر عن نتيجتها ستكون ملهمة في تجارب مقبلة».

«وأما الرافد الثاني لشجاعة سميحة خليل فينبع من اختيارها الترشح لموقع الرئاسة، لا مجرد العضوية في المجلس التشريعي، علماً بأنها تعلم أنها لو اختارت عضوية المجلس التشريعي لوصلت دون أي عناء، بل وبترحيب علني أو ضمني من السلطة ورئيسها. وهذا يعني جديتها في هدفها السياسي، أي إلغاء الإتفاقية أو تطويرها، فكان خيارها للمنصب المؤثر والقادر على اتخاذ القرار، وهو «الرئاسة» من دون شك».

«الرافد الثالث لشجاعة سميحة خليل ينبع من كونها امرأة في مجتمع يتأرجح بين من يريد شدة إلى قيود الموروث من تقاليد المجتمع المتخلفة والمحافظ، وبين من يريد جذبته إلى مجتمع ديمقراطي متقدم تحتل فيه «أم» أطفال الحجارة و«أخت وزوجة ووالدة» المعتقل والسجين والشهيد مكانتها التي تستحق، والتي انتزعتها خلال ربع قرن من النضال العنيد».

«إن مجرد ترشيح سميحة خليل لذاتها، هو إنجاز إعلامي كبير لحقيقة مطمورة حول المدى الذي وصلت إليه المرأة الفلسطينية في المجتمع المعاصر، وفي هذا كسب مضمون للشعب والقضية سواء نجحت سميحة أم فشلت» [...] و«لهذه الأسباب مجتمعة، لو كان لأمثالي من أبناء الهجرة الأولى حق التصويت، لما ترددت لحظة في منح صوتي لسميحة خليل، رغم حيرتي كبقية المعارضين بين المقاطعة والمشاركة. ألم أقل إنها امرأة شجاعة؟».

■ أما **ناهض الرئيس** فيقول⁽¹⁰⁾: «إن الناس عموماً، وإن كانوا قد عرفوا في حينه أن حظ السيدة سميحة خليل في النجاح في التنافس على منصب الرئاسة مقابل الرئيس ياسر عرفات في انتخابات عام 1996 هو بحكم المعدوم، إلا أنهم لم يستغربوا مع ذلك إقدامها على ذلك الترشيح لأنهم كانوا يعرفون أنها لم تقفز إلى ذلك الطموح من الفراغ أو من خلال أحلام الأذعياء، بل قامت بعمل إجتماعي نسوي مليء بالجدوى والنفع. وترشيح سيدة نفسها للرئاسة الأولى في فلسطين لم يكن أمراً منكراً، ولا مستهجناً، ولم يقل أحداً أنه ضده. أما النجاح أو عدم النجاح، فتلك مسألة أخرى. إن طريق سميحة خليل كان طريق العمل والخدمة العامة والتجاوب مع حاجات المجتمع والمشاركة في معاشية أزماته ومآسيه، هو الطريق الذي يمكن أن يحمل المرأة إلى المناصب وإلى المراكز وإلى الجدارة بالمسؤوليات، وذلك بأصوات النساء والرجال، كما هو الحال بالنسبة للمرشحين الذكور تماماً. وترشيح السيدة سميحة خليل نفسها في انتخابات الرئاسة عام 1996 أوجدت سابقة محترمة وأدت خدمة نادرة لا للمرأة الفلسطينية والعربية وحسب، ولكن للحياة السياسية في هذه البلاد».

■ وأما **حنا ناصر**، رئيس جامعة بيرزيت في حينه، فقد كتب في صحيفة «الأيام» الفلسطينية - 22/1/1996، «قدمت السيدة سميحة خليل خدمة جليلة إلى الشعب الفلسطيني حينما خاضت معركة الرئاسة؛ فقد أكدت أن بإمكان أي فرد أن يتنافس على المنصب الرئاسي ... ولم يجرؤ أحد في التاريخ الحديث أن يتنافس في الوطن العربي مع الرئيس الموجود على رأس منصبه، كما أرست أم خليل تقليد آخر، ألا وهو أن منصب الرئاسة ليس حكراً على الرجال فحسب، وبالتالي فعلى المجتمع الفلسطيني رجالاً ونساءً - والمرأة الفلسطينية بشكل خاص - أن تحيي أم خليل على جهودها الفعلية في إرساء قواعد الديمقراطية والمساواة للمستقبل».

■ واعتبرت الكاتبة والأديبة الفلسطينية كوثر الزين أن «الإستغراب في دخول السيدة سميحة خليل معترك الانتخابات الرئاسية كمنافسة لرمز من رموز نضال حركات التحرر في العالم المعاصر، مصدره ليس صغر الحجم النضالي لهذه السيدة، فهي في معزل عن هذا الشك، ولكن لمحدودية مساحة تحركها السياسي، فهي لم تنتم إلى قاعدة حزبية؛ فقد أعلنت بأنها مستقلة وأن ولاءها الأول والأخير لفلسطين. علاوة على انتمائها إلى مجتمع محافظ تغلب عليه العقلية الذكورية، ويخوض لأول مرة في تاريخه تجربة إنتخابات رئاسية، وما كادت تظهر النتائج حتى شاهدنا سميحة خليل على شاشات التلفاز محتفظة بملامحها نفسها، لتعلن أنها كانت واثقة من أن النتيجة لن تكون لصالحها، ولكنها رشحت نفسها حتى تثبت للعالم أن هناك ديمقراطية وتعددية في فلسطين. وكنت من الذين صدقوا سميحة خليل، واحترمت فيها تلك الإنسانية التي أقدمت على الهزيمة الفردية أمام عدسات العالم وأنظاره من أجل تحسين صورة وطنها في نظر العالم»⁽¹¹⁾.

■ وأما د. جورج حبش، الأمين العام للجبهة الشعبية ففي رسالة وجهها للسيدة سميحة خليل حول موقفه من ترشحها للإنتخابات الرئاسية، فقد ذكر ما يلي: «... ورغم أننا في الجبهة الشعبية قاطعنا الإنتخابات، فإنني من الناحية المعنوية كنت منشداً نحوك بكل قوة، وكنت أتمنى فعلاً لو كان بمقدوري أن أقدم لك كل ما أستطيع تقديمه من سند وعون، وبعيداً عن حسابات الربح والخسارة، فإنك قد فرضت نفسك على الساحة الفلسطينية بقوة، ونلت إعجاب الكثيرين على الساحتين العربية والعالمية نظراً للشجاعة التي تحليت بها بقرارك منافسة رئيس السلطة. إنني أرى فيك المرأة الشجاعة المتحدية الصلبة التي ترفض أي منصب أو كرسي على حساب الوطن وحريته واستقلاله، فمرحى لك رفيقة درب ونضال دائم ومستديم حتى طرد الإحتلال وتحرير أرضنا الغالية فلسطين»⁽¹²⁾.

شهادة ياسر عرفات في سميحة خليل

■ في رسالته بتاريخ 18/3/1999، والتي وجهها للإحتفال الذي أقيم لتأبين المرحومة سميحة خليل، قال ياسر عرفات، رئيس اللجنة التنفيذية لـ م.ت.ف: «في العقود الأخيرة وتحت حراب الإحتلال الإسرائيلي لأرضنا المحتلة عام 1967، كانت الأخت سميحة خليل تتصدر صفوف النضال الوطني الجماهيري في مواجهة الإحتلال ومنذ أيامه الأولى؛ وتقدم بذلك نموذجاً رائداً ومتقدماً لدور المرأة الفلسطينية. وفي جمعيتها، «جمعية إنعاش الأسرة»، بنت أم خليل وأخواتها وطناً فلسطينياً مصغراً محرراً تحت حراب الإحتلال. وفي هذا الوطن الصغير، الذي كان يكبر يوماً بعد يوم ويتوسع، مبان ومشاريع ونشاطات ليصبح مفخرة لنا، كانت أم خليل تُحدث ثورة في مفهوم العمل الإجتماعي الخيري بربطه بمتطلبات وأهداف الثورة الفلسطينية، ابتداءً من رعاية أسر الشهداء والمعتقلين وإيجاد فرص عمل لهم، إلى توفير فرص التدريب والتعليم لآلاف الفتيات، وصولاً إلى الإهتمام بالتراث والفلكلور الفلسطيني كמكون أساسي للهوية الفلسطينية التي كانت تتهددها مخططات الإحتلال الاستيطاني الإسرائيلي».

■ ويضيف الرئيس عرفات: «وأذكر عندما التقيت الراحلة الكبيرة عندما قدمت من تحت حراب الإحتلال إلى مقر قيادة الثورة في بيروت عام 1975، حيث استمعنا إلى تحليلها العميق للوضع ولمتطلبات العمل الوطني، وحيث لمست وإخواني في القيادة الفلسطينية هاجسها الأكبر: حماية وتصليب الوحدة الوطنية، وهو ما سعت دائماً لتكريسه عبر دورها القيادي الرائد في الهيئات القيادية للمقاومة في بلادنا. وعزاءنا في رحيلها أنها شهدت البدايات الصعبة لإعادة بناء وإعمار الوطن الكبير فلسطين التي سيذكر شعبها دائماً فقيدهم وهو ماضٍ في طريق بناء دولته المستقلة فوق ترابه الوطني» ■

وسام الإستحقاق والتميز

■ وفي شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 2011 منح محمود عباس، رئيس اللجنة التنفيذية لـ م.ت.ف، وسام الإستحقاق والتميز، للمرحومة السيدة سميحة خليل، وذلك تقديراً لدورها في العمل الوطني العام، ونضالها في مواجهة الإحتلال، وإسهاماتها في قيادة الحركة النسائية والعمل الديمقراطي في فلسطين ■

ساجي خليل

- (1) شريف كناعنة، عبد اللطيف البرغوثي، كتاب «مناضلة من فلسطين_ دراسة في حياة ونضال سميحة خليل»، ص 144-156، البيرة 1992.
- (2) مجلة «التراث والمجتمع»، العدد 43، ربيع 2006، ص 85، مركز دراسات التراث الفلسطيني، جمعية إنعاش الأسرة، البيرة.
- (3) + (4) + (5) نفس المصدر.
- (6) مجلة «كوتيريت راشيت» الإسرائيلية، العدد السادس، ص 20، 21، بتاريخ 15/1/1983.
- (7) <http://www.elections.ps/LinkClick.aspx?fileticket=UK3c6VTnImU%3d&tabid=578&mid>
- (8) مجلة «التراث والمجتمع»، العدد 43، ربيع 2006، ص 89، مركز دراسات التراث الفلسطيني، جمعية إنعاش الأسرة، البيرة.
- (9) صحيفة «النهار» اللبنانية، 15/1/1996
- (10) + (11) مجلة «التراث والمجتمع»، العدد 43، ص 153، 154، 157، مركز دراسات التراث الفلسطيني، جمعية إنعاش الأسرة، البيرة. ربيع 2006.
- (12) مجلة «الهدف»، العدد 1234، 10/3/1996، بيروت.

آمنة الريماوي .. من أجل وطن حر وشعب سعيد 1957-2021

● من أجل الحرية والسيادة والاستقلال، من أجل القدس، العاصمة الأبدية لدولتنا، من أجل العودة إلى الديار والممتلكات، تترى قوافل الشهداء، وهم الذين قدموا أعز ما يملك الانسان في سبيل الوطن، قدموا حياتهم، ضحوا بحريتهم، برزقهم، بصحتهم، من أجل أن ترتفع راية فلسطين فوق كل ركن من أركان أرضنا المقدسة، ومن بين هؤلاء الرفيقة المناضلة آمنة الريماوي التي كَرَّست حياتها، وأفنت زهرة العمر في خدمة القضية الوطنية، دفاعا عن الوطن ضد المحتل الغاصب من جهة، ودفاعا عن حقوق العمال والكادحين وصغار الكسبة من جهة أخرى، من أجل أن يحصلوا على حقوقهم.

● ابنة بيت ريم شمال غرب مدينة رام الله، تَفَتَّحَ وعيها السياسي إبان حرب حزيران/ يونيو 1967، حيث حَفَرَ في الذاكرة واقع لجوء عدد كبير من أبناء بلدتها إلى المُغَرَّ الطَّبِيعِيَّة المحيطة بها حماية من قصف طيران الاحتلال. وتطورت مشاركتها في العمل السياسي منذ العام 1969، تاريخ إنتمائها للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، بعد أن تبرعت بداياته من على مقاعد صفوف المدرسة.

● منذ بداية إنخراطها في العمل الوطني المنظم وحتى العام 1977، عملت آمنة بنشاط في الدفاع عن حقوق العمال الفلسطينيين من أجل تحسين ظروف عمل النساء والرجال؛ ومن عضوية الهيئة الإدارية للإتحاد العام

في رام الله عام 1978، إنتقلت عام 1985 إلى موقع نائب رئيس إتحاد العمال الفلسطينيين، وبقيت في هذا الموقع حتى عام 1994، حيث عملت للحصول على حقوق المرأة في المساواة بالأجر وبكامل شروط العمل، كما عملت على إنشاء مركز للدراسات العمالية مقره في رام الله.

● لقد كان شعار فقيدتنا الغالية، وطن حر وشعب سعيد، وطن حر بخلاصه من الإحتلال والاستيطان والتهويد، وشعب سعيد ينعم بالخيرات التي ينتج وبثمار عمله وجهده، وبخلاصه من الاستغلال. هذا ما يلخص حياة فقيدتنا الغالية وهذا ما يسلط الضوء على أهداف سعت بدأب من أجل تقدمها، وبالنتيجة إنتصارها، وهي القائدة المؤسسة في الحركة النقابية والرائدة في صفوف الحركة النسائية■



● في هذا اللقاء المبارك الذي يجمعنا وعلى وهج أحداث متواترة شهدناها في الأيام الأخيرة، نجدها مناسبة للتعبير عن موقفنا حيال هذه الأحداث، فعملية الإعتيال الآثمة التي أودت بحياة ثلاثة مناضلين في نابلس، من قادة «كتائب شهداء الأقصى»، إنما تؤكد على صحة الطريق الذي اختطوه لأنفسهم، وعلى مدى الخطورة التي يمثلها هذا الطريق، لا بل هذا الخيار على الإحتلال الغاشم. من هنا، نحن لا نكتفي بإحياء ذكرى هؤلاء بالتزامن مع إحياء الذكرى الأربعين لفقيدتنا الغالية، بل نؤكد إلتزامنا بالأهداف التي قدموا أرواحهم في سبيلها.

● أما بالنسبة لانعقاد المجلس المركزي في دورته الـ 31 - 2022، فنحن نعتقد أن المشاركة بأعماله في الظرف الذي تجتازه القضية الوطنية، هذه المشاركة تنبع من الضرورة الوطنية التي تبرز أولوية الدفاع عن الكيان الوطنية الفلسطينية، بصرف النظر عن نقاط التلاقي أو التباين، كما تُعبّر عنها القرارات الصادرة عن المجلس المركزي.

● إن الكيان الوطنية التي تجسدها م.ت.ف، الممثل الشرعي والوحيد لشعبنا تملي علينا كوطنيين فلسطينيين أن نصون المنظمة ونوطد أركانها، وفي الوقت الحالي تملي علينا الحرص الشديد على دور مرجعيتها التشريعية التي باتت تقتصر على المجلس المركزي بعد أن تم حل المجلس التشريعي، وبعد أن قرر المجلس الوطني أن تكون دورته الـ 23-2018، هي الدورة الأخيرة التي تتعقد بالقوام القائم حالياً، وبعد أن حوّل المجلس المركزي بمسؤولياته ومهامه وصلاحياته في فترة عدم إنعقاده، وإلى أن يُعاد تشكيل المجلس الوطني بالانتخاب بشكل رئيسي، وبالتوافق حيث يتعذر إجراء الإنتخابات.

● يبقى أن يُقال، إن أهم القرارات وأكثرها إستجابة للمصلحة الوطنية، تفقد قيمتها عندما لا تنتقل إلى حيّز التنفيذ، وهذا ما نطالب به من موقعنا في النضال الوطني، ونلتزم بالإضطلاع بدورنا إلى جانب دور الأخوة والرفاق في الحركة الوطنية الفلسطينية بكل الوسائل الشرعية المتاحة كي ترى هذه القرارات النور، التي من خلالها تتقدم المسيرة الوطنية، وعلى هذا يعلق شعبنا أوسع الآمال■



● لقد إحتلت المناضلة آمنة الريماوي موقعاً قيادياً في عداد اللجنة المركزية للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، أسهمت في إغناء النقاشات بالمرجات والقرارات الصادرة في ختام كل دورة من دورات اللجنة المركزية، كما إستحققت بجدارة عضوية المجلس الوطني الفلسطيني، ليس باعتبارها مناضلة في الجبهة الديمقراطية فحسب، بل وكذلك ممثلة لآلاف العمال والعاملات المنضوين في الإتحاد العام للعمال الفلسطينيين.

لقد قدمت المناضلة آمنة الريماوي نموذجاً إستثنائياً لما تكون عليه المرأة الفلسطينية، حين تكرس حياتها وجهودها في خدمة وطنها وشعبها.

● إذ نقف بخشوع أمام ذكرى رحيل المناضلة الطليعية، الرفيقة العزيزة والمحبة، آمنة الريماوي، فلنجدد العهد على الماضي قدماً في درب النضال من أجل الأهداف السامية التي أمضت رفيقتنا آمنة، سني العمر من أجل إنتصارها، إنطلاقاً من عضويتها في الجبهة الديمقراطية، وعضويتها في المجلس الوطني الفلسطيني- 1985/1988، ومن قلب المعتقل، حيث أمضت أكثر من عامين- 1991/1993 أسيرة في زنازين الإحتلال.

وما ترشيح الرفيقة آمنة الريماوي من ضمن 1000 امرأة من حول العالم لنيل جائزة نوبل للسلام للعام 2005، سوى التعبير عن مكانتها في المحافل الدولية، كقائدة شعبية في الحركتين النسائية والعمالية معاً، إنطلاقاً من ميدان العمل الوطني التي كانت دائماً تحتل موقع الصدارة في ساحاته ومنابره ■

ندى طوير

12/2/2022

**شادية أبو غزالة .. أول شهيدة فلسطينية
بعد إحتلال الـ 67**

1949-1968

■ بدء المعرفة ... معرفتي بشادية، التي أرى لزماً علي أن أطلعكم عليها لتتعرفوا على الرسالة التي حملتها منذ نعومة أظفارها وحتى مطلع شبابه ... وأقول مطلع الشباب لأنها استشهدت ولم تكن أتمت العشرين من عمرها.

هي لقطات من الطفولة لا مثيل لها، أذكرها بوضوح:

- مدرسة الفاطمية، عام 1954 في مدينتنا الحبيبة نابلس.

- الصف الأول الابتدائي، بدء العام الدراسي، حيث كانت خطواتنا الأولى المستقلة خارج دائرة البيت الأهل.

- المعلمة، المرحومة ست صبرية أبو غزالة، تمسك بيد إحدى طالبات الصف، التي تبدوا أصغر منا سناً، تحملها فوق الطاولة، وتتركها لتخبرنا شيئاً ... وإذ بابنة صفنا الصغيرة تأخذ بالإنشاد، بكلمات غير واضحة تماماً لنا:

سأحمل روجي على راحتي وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يغيظ العدى

■ نعم ... هذه كانت رسالة شادية أبو غزالة التي حملتها، ولُغتنا بها مبكراً وهي في الخامسة من عمرها، وظلت هذه الأبيات الأحب إلى نفسها في الشعر، وكبرت معها. لقد ترعرعت شادية، وسط عائلة وطنية تهتم بالأدب والثقافة، ولا عجب أن أنشدت ما أنشدته وهي في الخامسة من عمرها.
أما رسالتها الأخيرة ... فكانت في صيف عام 1968 قبيل استشهاده، حيث كانت تنشد دوماً، ولم نكن نعلم إنها رسالتها الأخيرة:

أنا إن سقطت فخذ مكاني يا رفيقي في الكفاح

وهي العبارة التي خُطت على شاهد مثاها الأخير... وكانت لنا جميعاً ولصديقاتها بمثابة رسالة تكليف بالمهمة من القائدة المقدمة، النموذج في النضال والتضحية والإلتصاق بالوطن والشعب.

■ ولدت شادية نايف أبو غزالة عام 1949 في نفس الغرفة التي فارقت فيها الحياة، فاحتضنت غرفتها المحببة إلى نفسها، أشلاءها التي انتشرت على الجدران بسبب انفجار العبوة الناسفة، التي كانت معدة لوضعها في عمارة شالوم في مدينة تل أبيب في اليوم التالي- ذاك البيت الذي يطل على مدرسة الفاطمية، حيث أنهت شادية المرحلة الابتدائية والإعدادية، وأكملت الدراسة الثانوية في مدرسة العائشية.

■ شادية صاحبة العينين البنيتين الصغيرتين اللامعتين، اللتين تطلان بحرص وتفقد لكل ما حولهما، وصاحبة البشرة البيضاء المشربة بالحرمة الخجولة، رشيقة الحركة، مشرقة الابتسامة، تميزت منذ طفولتها بشخصية قوية مستقلة فريدة من نوعها، تجمع ما بين الرقة والشفافية من جهة، والصلابة من جهة أخرى، جريئة شجاعة، وخجولة متواضعة إلى درجة سرعة إحمرار الوجنتين عند أدنى إنفعال، صريحة وواضحة لا لبس في حديثها، وفي الوقت نفسه غامضة متكتمة غير مفرطة في الكلام، هادئة حاملة وديعة ... وهي متمردة على الرتيب المألوف ... وثائرة كالبركان في وجه عدوها وعدو شعبها.

■ كانت هذه الصفات لها موقعها ومكانها في شخصية شادية فكانت تعشق الأطفال والزهور والقمر والشجر، كنا نرى ذلك في الصور التي كانت تلتقطها بكاميرتها الخاصة، وتجمعها وتعلقها في غرفتها، ونرى ذلك نحن بنات صفها ومعلماتها في الجمل التي كانت تُكوّننها للتعبير عن معاني المفردات سواء في اللغة العربية أو الإنجليزية.

■ كانت صلبة حديدية لا تساوم في المبادئ والثوابت التي تحملها، ولا عجب أن حسمت أمرها عام 1967، وكانت قد أنهت للتو السنة الأولى من دراستها في جامعة عين شمس بالقاهرة، في الوقت الذي كانت من المتفوقات والمحبات للمادة التي تدرس - علم النفس والاجتماع، حسمت أمرها دون جدال بالبقاء في الوطن، فأكملت دراستها في كلية النجاح في نابلس، حيث الإحتلال وشعبها ورسالتها التاريخية. وكانت ترد

على كل من حاول إقناعها البقاء في القاهرة لإكمال دراستها بالقول: «ما فائدة الشهادة الجامعية، إذا لم يكن هناك جدار أعلقها عليه».

■ كانت شادية - كما جاء في سيرتها في كتاب شؤون المرأة / إعداد سالم ريحان، وكما أعرفها، تعشق البلدة القديمة، بأبنيتها وجدرانها، ودهاليزها وحاراتها، قدمها وتاريخها، تمشي وهي تتجول في أزقتها المعتمة وكأنها في حالة توحّد مع عالم سحري، حالة من العشق الممارس، تمتص الجدران وهي تنتظر إليها وترفع عينها في المشاركة مع الآخرين؛ وأضيف: أنها هي التي عرّفتني على البلدة القديمة وأزقتها حيث كنت أسكن في رفيديا.

■ عُرف عن شادية الجراة المتناهية، وقوة العزيمة، فلم تكن لتعترف بتمايز بين الفتاة والشاب، يمنح الأخير تفوقاً عليها، بل كانت تقوم بكل ما يطلب منها، أو قدر أن عليها القيام به، أو من حقها القيام به، بدءاً من حضور عرض سينما بمفردها لفيلم «رعب» - وكان يبدو هذا غريباً في نابلس ... في تلك الأيام- أو لحضور ندوة تعج بالشباب وعدد الفتيات فيها أقل من أصابع اليد الواحدة في مكتبة بلدية نابلس، وإنهاء بالتدريب على السلاح والمتفجرات ونقلها وإخفاء الشباب في بيئتها، وزيارتهم في الجبال والمغر ... إلى القيام بالعمليات العسكرية المسلحة.

■ إلى جانب ذلك كله، كانت - كما ذكرت - تبدو شديدة الغموض، متحفظة في الحديث، شديدة التكتّم، الأمر الذي جعلها تتجح في الإنغلاق على أسرار عملها وعمل من يحيطون بها، لدرجة أن أهلها - أقرب الناس إليها - على حد تعبير شقيقتها د. إلهام كانوا يجهلون تماماً طبيعة الأعمال التي تقوم بها والعلاقات التي تحيط بها، مع أنها ابتدأت مسيرتها النضالية وهي في الرابعة عشرة من عمرها - وكنا في نهاية المرحلة الإعدادية - أثناء مرحلة المد القومي، مرحلة تأثرنا فيها بالحركة الناصرية، والفكر القومي، فكانت بداية العمل النضالي المنظم لشادية في صفوف حركة القوميين العرب التي تطورت لاحقاً في الساحة الفلسطينية إلى العمل بصيغة «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين».

■ إثر هزيمة حزيران/ يونيو 1967، كان الخيار التاريخي للثورة الفلسطينية المعاصرة الكفاح المسلح لحرر العدوان وتحرير فلسطين، وكانت شادية في طليعة المناضلين والمناضلات ضمن هذا الخيار وتحت رايته. أصبحت رسالتها أكثر وضوحاً ونضجاً ... قادت شادية تنظيم الفتيات في نابلس، وشكلت أول خلية نسائية مسلحة - حيث كانت قد درست في معسكرات الثورة - هذه الخلايا هي التي قامت لاحقاً، وبعد إستشهاد شادية، بجملة من العمليات العسكرية الناجحة والمعروفة في حينها.

■ حين زارت عمارة شالوم في تل أبيب، قالت سادمرها على رؤوسهم، وخططت لذلك، لكن الخطأ وسره ذهب معها ... انفجرت العبوة بها في بيئتها، وقد تم التعرف عليها بعد استشهادها عبر خصلة من شعرها وجزء من ملابسها.

جميع أهل نابلس يذكرون تلك الليلة، في السابع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر 1968، حين أعلنت مدافع نابلس بدأ صوم شهر رمضان الكريم، وكان المدفع الأخير، إعلان استشهاد شادية أبو غزالة، الذي شكل عند بنات نابلس ورفيقات وصديقات شادية نقطة البداية في الكفاح النسائي المسلح، فكانت لحظة استشهادها بالنسبة لهن ... لحظة إدراك الحقيقة، ومعرفة الطريق ... لتحرير فلسطين.

■ بكأها أهل نابلس بحرارة، وخرجوا جميعاً لتشييع جثمانها، حيث إختطفه الشباب من المستشفى الوطني بعد اشتباك مع جنود العدو سقط إثره أكثر من شهيد، وسارت مسيرة هي الأولى من نوعها حتى ذاك التاريخ في شوارع نابلس وباتجاه المقبرة الغربية، حيث ووريت الثرى الذي فدته بروحها ونُقِست على قبرها رسالتها الأخيرة: «أنا إن سقط فخذ مكاني يا رفيقي في الكفاح» ■

ماجدة المصري

تشرين الأول/ أكتوبر 2024

أم ناصر .. ياسمينه الشام وعرقها الأخضر الجميل، هي نجلاء ياسين .. القومية العروبية، فلسطينية القلب والروح 1937-2015

■ يناديها الجميع باللقب الذي تحبه كثيراً: الأخت أم ناصر. وناصر هو الرمز المعنوي لعشرات المناضلين الفلسطينيين الذين أحببتهم أم ناصر كأبنائها وأحبوها كأُم روحية لكل واحد منهم. هي الابنة المخلصة لحركة فتح والثورة الفلسطينية، بتقاليدها الوحدوية وجدلية علاقاتها الكفاحية والإنسانية المترابطة التي بناها القادة والرعاة الأوائل منذ منتصف الستينات.. لشعب خبر صنوف القهر وإنكار نعمة الحياة العادية كما يعيشها بنو البشر.

■ تشرفت بمعرفتها منذ المؤتمر الرابع للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية الذي عقد في تونس عام 1985، وبعد ذلك في اجتماعات الأمانة العامة للاتحاد، وأنشطته في الشتات ثم على أرض الوطن. كان المخاض السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية عسيراً وشاقاً من ظلم ذوي القربى أو القوى الاستعمارية، وكان الاتحاد على محك «القسمة أو الثبات على مكوناته التمثيلية السياسية المتعددة في إطار الوحدة»... بعد الزلازل التي عصفت بالحركة الوطنية الفلسطينية إثر الاجتياح الاسرائيلي عام 1982 ثم بعد اتفاق أوسلو. وكان القرار الوطني الحكيم بالحفاظ على كنز الوحدة الوطنية في إطار مؤسسات منظمة التحرير. كانت أم ناصر منحازة بلا تردد لهذا الإتجاه وبقيت أمانة ومخلصة لمبادئ الوحدة في سلوكها السياسي والإنساني والاجتماعي.

■ أما غزّة التي عادت اليها مع من عادوا بعد عام 1994، فلها مع أهلها حكاية إستثنائية، فقد أحببت أم ناصر مجتمع غزّة كما لم تحب أحداً من قبل، دافعت عن ابنائها وبناتها وتبنت مطالبهم الإنسانية أمام «الختار» الذي كان يتوقع دائماً في كل مقابلة معه أن بحوزتها عشرات طلبات التوظيف والمعالجة للفقراء والذين أنهكتهم مصائب النكبة واللجوء.. وظل الوفاء حياً بينها وبينهم حتى بعد مغادرتها القسرية غزّة بسبب المرض - إلى القاهرة.

■ لن أنسى دورها في الإنتفاضة الثانية عام 2000 وكانت لا تزال في غزّة، عندما تصلها شحنة المساعدات العينية من الهيئات النسائية في الأردن التي ترأسها الراحلة عصام عبد الهادي الرئيسة السابقة للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية: تتصل من غزّة وهي تقيض غبطة وفرحاً، ثم تسارع الى تشكيل لجان من مستقلات وممثلات عن جميع الفصائل لتوزيع المساعدات على الاسر والشباب والاطفال، والعنوان دائماً هو دعم صمود الانتفاضة الباسلة.

■ إستنفرت معارفها وأقاربها في الخليج لتقديم الإسناد الممكن، وكم كانت فخورة بما قدمته شقيقتها الراحلة الحبيبة فرقد وابنتها الغالية نبيلة: مساعدات نقدية ومادية لأطفال غزّة المقاومين الصغار الذين كبروا في أحضان اللجوء والحرمان من الوطن.

■ المسيرة طويلة ومشرفة من عمان إلى بيروت وتونس ثم غزّة إلى ان استقرت مرغمه في القاهرة بعيداً عن الوطن الذي أحببت وعن المجتمع السياسي والإنساني الذي أسكنها قلبه وأسراره ومعاناته التي لا تنتهي.

شهد بيت أم ناصر حيثما تنقلت في العواصم على حوارات القادة الفلسطينيين الكبار، واستقبل ضيوفهم العرب وغير العرب، كما شهد استقبال قيادات نسائية عربية وعالمية رفيعة.. وفتح أبوابه لأبناء وبنات فلسطين الذين جلسوا - على طاولة طعام الخالة والأخت الحبيبة أم ناصر. فالقلب الكبير يتسع للجميع.. وفي زواياه العميقة أسرار مكتومة ظلت مؤمنة عليها حتى وفاتها.

■ أحببت رفيقاتها وصديقاتها اللاتي عملن معاً في مجالات منظمة التحرير، لم تتوقف يوماً عن السؤال عن كل واحدة منهنّ..

أبتها الحبيبة أم ناصر نفتقدك وأنت تحوزين على مساحة خاصة في وجدان كل منا.. يعزينا أنك ستنضمين في دار الحق إلى جميع من أحببت روحك الطاهرة وسبقك إلى الرحيل؛ ستبقين في ذاكرتنا ياسمينة الشام وعرقها الأخضر الجميل.

عبلة ابو عبلة
شباط/ شباط 2016

الفصل الرابع

أدباء في دروب العمل الوطني

■ سالم النحاس

■ الياس خوري

عن سالم النحاس، الذي تعزز حضوراً بعد أن مضى 1940 - 2011

■ يشرفنا في حزب الشعب الديمقراطي الأردني/«حشد» أن الرفيق الراحل سالم النحاس – أبو يعرب، الإبن البار للأردن ومدينته التاريخية مأدبا كان مناضلاً في صفوفنا منذ سبعينيات القرن الماضي، بل كان واحداً من المناضلين الكبار متعددي المواهب والإمكانات، من أصحاب الطاقات الخلاقة الذين نهضوا بالحركة الوطنية الأردنية في مراحل قاسية وصعبة المراس، دون أن يتوقف يوماً عن السير نحو حلمه بحياة خالية من القهر والإضطهاد، ووطن سيد حافل بالعدالة والمساواة.

■ لقد أدرك كبيرنا في وقت مبكر من حياته عمق العلاقة المتفاعلة بين التاريخ الوطني الأردني، والتاريخ الوطني الفلسطيني، وكل ما يترتب على ذلك من رؤى ومهام وبرامج متداخلة، متداعية بين الحركتين الوطنيتين: الأردنية والفلسطينية. وعليه، فقد أمضى الرفيق سالم سنوات من عمره معتقلاً وهو الذي لا يطيق الضيم، ولا يليق بمثله أن يقبع خلف جدران سجن.

كما أدرك أيضاً عمق العلاقة بين مسارات الأدب والسياسة، فجمع بينهما ببصيرة إنسانية عميقة وانحياز لا مرأى فيه لخوض معركته في حياته الشاقة دون أن يتخلى عن كامل الأسلحة التي يوفرها له الأدب والعمل السياسي والإلتزام بحزب الشعب الديمقراطي الأردني/«حشد» الذي أصبح سالم عنواناً له وفارساً مقدماً من فرسانه الشجعان.

■ سالم النحاس: هو الذي عرفه الأردنيون جيداً، السياسيون والأدباء والنخب الثقافية، فقد كان له الفضل الأكبر في تأسيس «رابطة الكتاب الأردنيين»- 1974، وشهد بيته الصغير المتواضع عشرات الاجتماعات التحضيرية طيلة عام 1973 لكبار الأدباء والكتاب: خليل السواحري، إبراهيم خليل، جمال ناجي، عبدالرحمن ياغي، إبراهيم العبسي، مؤنس الرزاز، خالد الكركي، محمود شقير.. وغيرهم؛ وهذا في زمن كانت تحاصر فيه الأحكام العرفية الأحزاب والمؤسسات الجماهيرية ذات التطلعات التحررية.. وكان أن ولدت «الرابطة»: المؤسسة الثقافية التقدمية الأهم في البلاد.

■ يقول عنه أحد أصدقائه في إستعادة لجملة قيلت في المتنبي عبقرى الشعر العربي الذي لا ينازع: «سالم النحاس مالي الدنيا وشاغل الناس»، حيث يشهد له الجميع براعته في إدارة التكتيك السياسي، ومثابرته التي لا تنقطع في متابعة الشأن العام وتوظيف إمكاناته المتنوعة في خدمة ثقافة الحداثة والتطور ودحض ثقافة الظلم والظلام؛ أما في مواسم الانتخابات التي كانت تشهدها الرابطة سنوياً، فقد كان يديرها ببراعة، ولا يعرف أصدقائه من أين يستحضر كل هذه الإمكانات للتعامل مع مختلف التيارات السياسية والفكرية، متجاوزاً المصاعب والحساسيات، وصولاً إلى بر القاسم المشترك. دون كلل، أو توقف، أو ملل.. وكم كانت لحظة مثيرة تلك التي جرى فيها إنتخاب سالم النحاس للهيئة الإدارية لـ «رابطة الكتاب الأردنيين» أثناء وجوده - في مطلع الثمانينيات - في السجن معتقلاً، ولكنه حر أيضاً، إرادة وفكراً، فقد أجمعت كافة التيارات في الرابطة على إنتخابه، إنحيازاً للحرية وللدور المتقدم للمناضل الكبير.

■ أسس سالم النحاس صحيفة «الأهالي» الناطقة باسم حزب الشعب الديمقراطي الأردني/«حشد» عام 1989 حيث تزامن نشوؤها مع بدء مرحلة الإنفراج الديمقراطي في البلاد واستقدم لها كتاباً مرموقين، وآخرين ناشئين جرى تدريبهم على الكتابة في الصحافة السياسية المعارضة بعد مرور أكثر من ثلاثين عاماً على الأحكام العرفية.

كان للصحيفة ولازال دور بارز في الحياة السياسية العامة، وفي توطيد علاقة القواعد الحزبية بالبرنامج السياسي. كان سالم هو عراب «الأهالي» بلا منازع، فقد رعاها طيلة خمسة عشر عاماً من حياته، مقدماً خلاصة جهده الفكري والسياسي والأدبي، دون أن تنتهيه أية عقبات نشأت بسبب خطها المعارض للسياسة الرسمية في البلاد. وصمدت «الأهالي» ومناضلوها وهم الذين يحملون روحاً كفاحية عالية وقلماً لا يغفو ولساناً لا يعرف الصمت على الضيم.

لقد سبق الرفيق سالم مثقفون ديمقراطيون مميزون أسهموا بجدارة في النهوض بالثقافة الوطنية في البلاد وأحاطوا بجدلية العلاقة الأردنية - الفلسطينية مستنيرين بما أقره أول مؤتمر وطني أردني عقد في عمان عام 1928، وكان للرفيق علاقة حية مع أصدقائه المناضلين والأدباء، سواء كانوا أحياء أم أمواتاً، فقد كان يُخَيَّل لي وهو يتحدث عن الراحلين الكبار: عرار/ مصطفى وهبي التل، وتيسير السبول أنهم موجودون بيننا.

■ رشَّح الحزب سالم النحاس للإنتخابات النيابية لأكثر من دورة منذ عام 1989، ولا ينسى الرفاق تفوقه في الخطاب السياسي وقدرته على التأثير في المزاج العام، ولا زلنا نذكر أيضاً كيف حمّله أهل مخيم البقعة على الأكتاف في الحملة الإنتخابية الواسعة التي شاركت فيها كل أطراف الحركة الوطنية آنذاك بعد سنوات طويلة مما كان يُعرف بمرحلة العمل السري.

لقد طالبت العقوبات الرفيق سالم طيلة حياته بسبب إنتمائه السياسي حيث فُصل من عمله وأبعد من البلد العربي الذي كان يعمل فيه، وكم كانت الخسارة كبيرة عندما أقعده المرض وحال بينه وبين نشاطه السياسي الفائق، وإبداعاته الخلاقة التي لم تتوقف ليس على المستوى الوطني الأردني فحسب، وإنما على المستويات

القومية، كما برزت أثناء الإنتفاضة الأولى في فلسطين المحتلة، والحصار الطويل للعراق الشقيق؛ ولم تهدأ روح سالم النحاس حتى بعد إصابته بالمرض، وظل يكافح من أجل أن يستمر دوره النضالي.

■ أما ما يجري اليوم في العالم العربي، فهو يليق بأن يكون ميداناً لروايات سالم النحاس وسعة خياله السياسي.. فمهما تعثرت، وأينما ضلّت الطريق، فلا بد للثورات الشعبية أن تعود إلى أصولها، وقوانينها الطبيعية بعيداً عن الإستهلاك السياسي وهيمنة الفئة، وتغول القطب الواحد.. لا بد لكل هذه الإحتجاجات والإنتفاضات والثورات بمستوياتها المختلفة، من أن تقطف حقوقها المشروعة في العدالة والحرية والمساواة والكرامة الوطنية بعد أن ذاقنا شعوبنا العربية مرارة التفرد والإقصاء واحتكار السلطة والموارد وعودة الإستعمار إلى المنطقة بأقبح أشكاله وأشرسها.

وعندما يتوفر كل هذا المخزون الهائل والقدرة غير العادية على مواصلة الطريق وابتكار أشكال التغيير والتعبير عن الاحتجاج؛ أو عندما تُثبت تربتنا العربية هذا القدر من المناضلين والأكفاء والضمائر الناصعة، فلا بد أن يطلع الفجر الذي طالما ترقبناه دون أن يأتي.

■ لقد رحل عنا مناضلون كثير لن ننساهم، ولن نُمحي إنجازاتهم على طريق الكفاح الصعب الطويل ومن حق كل المناضلين الذين رحلوا عنا أن نفي لهم بالوعد فهم الذين مهدوا الطريق للتحول نحو الديمقراطية والاستقلال الوطني على امتداد عشرات السنين، دون أن يضجروا من ظلام وظلم الإستبداد.. كانوا متيقنين من قدوم الفجر الذي لا بدّ وأن يأتي بهياً مثل أرواحهم الطاهرة.

■ نفتقد صوت الضحكة المجلجلة للرفيق سالم عندما كانت تتكسد أمامنا الهزائم والإنكسارات الكبيرة منها والصغيرة، فهذه الطريقة خاصته التي يعبر فيها عن مقاومة الألم والشعور بالخسارة... ومثلما قال عنه صديقه الكاتب حسين جمعة: «ينظر سالم إلى الحياة بعيني صقر، مضى وهو يأخذ حذره من أجل أن ينطلق من جديد. أبو يعرب، القادم من الصحراء وهو يحمل قيمها وتقاليدها أهلها الثقافية لا يرتضي المواقف الرمادية ولا يعرف سوى إختيار واحد: الحياة أو الموت، النصر أو الهزيمة».

إلى روح سالم النحاس، ولأرواح الرفاق المناضلين الراحلين: سلاماً ووفاءً لا ينقطعان ■

عبلة أبو عبلة

كانون الأول/ ديسمبر 2024

**الياس خوري ...
البناني، الذي اختار فلسطين قضية
1948-2024**

■ منذ الساعات الأولى لصباح السادس عشر من أيلول/سبتمبر 1984، تدفقت إلى شوارع مخيم شاتيلا وأزقته الضيقة، جموع ضمت آلاف المواطنين، لبنانيين وفلسطينيين، يحيون الذكرى الثانية لمجزرة صبرا وشاتيلا، اندفعت بمسيرة حاشدة إلى المقبرة الجماعية لضحايا المجزرة، رافعين الأعلام اللبنانية والفلسطينية؛ وسار في ركاب التظاهرة التي شهدتها العاصمة اللبنانية بيروت للمرة الأولى، منذ الغزو الإسرائيلي في حزيران/يونيو 1982، قادة سياسيون، ومؤسسات إجتماعية وكُتاب وصحفيون محليون وأجانب، ومن ضمن هؤلاء كان يسير في المقدمة، كاتب وروائي وصحفي، وصاحب كلمة جريئة، ودور مقدم، إسمه الياس خوري.

■ عاش الياس خوري في مطلع شبابه المرحلة الذهبية للعمل السياسي في لبنان. في تلك الأيام إنطلقت الحركة الوطنية اللبنانية، بتعددتها وحيويتها الدافقة، بخطى ثابتة نحو إرتياد آفاق التحرر الوطني والديمقراطي في دولة المواطنة والحرية والمساواة؛ وترافقت معها إنطلاقة مقاومة الشعب الفلسطيني، رداً على هزيمة 5 حزيران/يونيو 67، وبدأت الحالة العربية تعيش منعطفات سياسية، تحت وطأة الهزيمة وفي ظل النهوض الشعبي في المنطقة؛ وبالمقابل، لجأت أطراف التحالف الأميركي- الإسرائيلي إلى تحريك أدواتها وأتباعها والمتحفين بها، والمتضررين من النهوض الجماهيري الكبير، والإطلالة القوية للأفكار والمشاريع التحررية الوطنية الديمقراطية في الإقليم. وفي قلب هذا التحرك في لبنان، كان الياس خوري يعيش في كنف عائلته، في بيروت، العاصمة المتوهجة ثقافاً ونشاطاً، التي إنقسمت سياسياً، حتى قبل إندلاع حرب الستين- 1975/1976، إلى شرقية وغربية، حيث نفوذ الأحزاب الوطنية اللبنانية في الغربية، المتحالفة مع المقاومة الفلسطينية.

■ أدرك الياس خوري أن المقاومة الفلسطينية ليست مجرد «بندقية» أشهرت بمواجهة هزيمة حزيران والرد عليها فحسب، بل هي حركة تحرر وطني، تشكلت في مراحل النهوض والصمود الكبرى، شقيقة حركات التحرر العربية، متحدرة من صلبها، وواحدة من أهم حركات التحرر في العالم. كما رأى في الإنتماء العضوي، إلى هذه الحركة الوطنية، مخرجاً له من الغوص في معازل الإنتماءات الضيقة، وحلاً عملياً لإثبات خطأ الإدعاء بـ«الطائفة - الطبقة»؛ فلا هذه، في الغربية ولا تلك في الشرقية، طبقة، بل صراع نفوذ على هندسة نظام سياسي لم تستقر أوضاعه، منذ الإستقلال.

■ شكل ميدان الصحافة الفلسطينية التي ازدهرت في بيروت، في زمن النهوض والصمود، الفضاء الفسيح، ليعبر فيه الياس خوري عن نفسه، وفكره وصدق إنتماءه إلى عروبه برؤية تقدمية وطنية. إحتل مكانة مميزة في عالم الصحافة الفلسطينية، حتى أن كثيرين إعتقدوا أن الياس خوري فلسطيني، أو لبناني من أصول فلسطينية، فقد رأوا فيه نموذجاً للمثقف الذي يقرن الوعي بالعمل، والذي لا يكتفي بالدفاع عن أفكاره وقناعاته في مساجلات المنتديات - على قيمتها - بل يندفع إلى الميدان، مساهمة منه في تحقيقها.

■ دافع الياس خوري عن قناعاته وبقينه السياسي، بالرواية، والقصة، والمقال؛ كان أدبياً كما كان سياسياً؛ كان روائياً بقدر ما كان مؤرخاً عبر الرواية؛ كان ناقداً، يُحوّل قلمه إلى سوط يجلد فيه الإنحراف السياسي الرسمي عربياً ومحلياً، يملك الشجاعة في قول كلمته بالوضوح الكافي دون دوران، وبعيداً عن أي حسابات خاصة.

وقدم في هذا السياق نموذجاً في رؤيته لما يتوجب على الكاتب والمثقف أن يكون، حين انتمى إلى «الكتيبة الطلابية»، التي إنتسبت لاحقاً إلى «الجرمق»، أعلى مرتفعات بلادنا المحتلة، تلك الوحدة الفدائية، الفلسطينية بانتماؤها، والتعددية - إن لم يكن الأهمية - بتكوينها، التي أرادت ونجحت في أن تقدم تجربة رائدة، جمعت في صفوفها عشرات المثقفين، من أهل القلم وغيرهم، الذين حولوا قواعد العمل الفدائي وبالتزاوج مع العمل المسلح، إلى حاضنة للفكر وتعميق الوعي النقدي بجوهر المشروع الوطني الفلسطيني.

■ بعد أن غادرت قيادة المقاومة الفلسطينية بيروت في أواخر آب/أغسطس 1982، بعد 87 يوماً من القتال والحصار، عاش القاطع الغربي من العاصمة اللبنانية، أياماً عصيبة من القمع بمختلف الأشكال والأساليب،

طاولت بيئة المقاومة من فلسطينيين ولبنانيين، فمنهم من إختار الإنزواء، أو الإنضواء، أو الإغتراب المؤقت عن البلد، ومنهم من صمد وكافح وثبت؛ أما الياس خوري، فعلى الرغم مما تعرض له من مضايقات، واستدعاءات لتحقيقات هدفها ترهيبه ودفعه إلى التكيف أو الرحيل، فقد بقي صامداً متشبثاً بموقفه، لم يتخلّ عن قلمه ولا عن خطابه السياسي، وبقي أميناً لالتزامه، ووفياً لأفكاره، التي كان يدرك أنه قد يدفع يوماً ما ثمنهاً غالياً، كما دفعه كثيرٌ ممن طالتهم اليد السوداء.

لذلك، عندما إنطلق في مقدمة مسيرة إحياء ذكرى مجزرة صبرا وشاتيلا، إنما كان يحتفي بانتصاره على الوعي الإنعزالي، الذي أراد إغراق بيروت في دهاليزه المظلمة، وأنه استعاد عاصمته بيروت، باعتبارها عاصمة تتيح للشعب الفلسطيني، أن يعبر عن وطنيته وانتماؤه؛ ويمارس فيها الشعب اللبناني، حريته في انتمائه إلى قواه الوطنية، والتحامه بالقضية الفلسطينية.

■ لم يكن الياس خوري مجرد روائي يكتب الرواية من أجل إشباع رغبته في الكتابة، بل جعل من روايته رسالة، يتوجه بها إلى من يعتبرهم قراءه وشركاءه في الوعي والانتماء. كان يكتب من قلب الحدث، وليس من منظار الرؤية عن بعد. كان يعيش الرواية قبل أن يكتبها، كما في رواية «باب الشمس» التي صارت عملاً سينمائياً ناجحاً من إخراج المبدع يسري نصرالله؛ ورغم عمق إدراكه لجوهر القضية الفلسطينية وتفصيلها، فإنه عمد إلى التحضير لها ليس عبر المراجع المكتوبة فحسب، بل عبر العودة إلى المرجع الأصل للقضية، إلى العيش في خيمة القصص في المخيم، فأجرى في مخيم برج البراجنة، في ضاحية بيروت الجنوبية، عشرات المقابلات، إنتقل فيها من عمق إدراكه للقضية الفلسطينية إلى عمق إدراكه للإنسان الفلسطيني، بما ينطوي عليه من مشاعر وأحلام، ويستبطنه من تمنيات، وتطلع إلى الحاضر وإلى المستقبل، وهكذا كانت «باب الشمس» صورة شديدة الواقعية في تصويرها للإنسان الفلسطيني، الجوهر والأساس في قضيته الوطنية.

■ وكذلك لم يكن الياس خوري، مجرد صحفي يبحث لنفسه عن دور، بل كان يعتبر الصحافة ميداناً للنضال اليومي ولعله عبّر عن هذا النزوع الذي كان يبحث عن منبر من خلال توليه إحدى المهام الرئيسية في «مؤسسة الدراسات الفلسطينية»، في بيروت، ومنها دوره في استدامة صدور مجلة «دراسات فلسطينية» وإغنائها بالملفات ومحاور النقاش، وإعلاء إتحافها السياسي الوطني والثقافي، وحمايته من أية تلونات سياسية، قد تنزلق بين الأسطر.

الياس خوري أيها الصديق الراحل الباقي/ على ضريحك وردة بيضاء ■

فهد سليمان

تشرين الأول/ أكتوبر 2024

الفصل الخامس

بالدم .. رسموا لفلسطين

■ توفيق عبد العال

■ ناجي العلي

توفيق عبد العال .. ابن عكا البار، الذي لم يبارح الأزرق مخيلته 1938-2002

■ الفرشاة والألوان أسلحته الثقيلة على جبهة الرسم. يتمترس خلف المنصب ويعطي قلبه للريح الغربية. يقتنص الومضة كصائد ماهر فيغمره الحلم الصيفي بورديات عاملات النسيج، وأهازيج صبايا الجبل؛ وكشلال سفقي تداهمه الحرب الأهلية، دامية كالجرح المستوطن في شتات الفلسطينيين، فاتنة باكية كطفلة تبحث عن أبوين ضاعا في قذائف الإنعزاليين، حزينة كالتهيدة، كالنوح الريفي على بنادق فلاحية ثورة الـ 36؛ وكمرجل من الحب والغضب أذيت فيه ثلوج المرتفعات المختلطة بدماء تل الزعتر، فرغ غضبه، حبه، حزنه، فرحه باللوحة والملصق. تشهد له الشوارع وجدران المنازل وواجهات المؤسسات. تشهد له محاور الدفاع عن المخيمات، ولأنهم يشهدون، ظل بخندقه محارباً. وفي هذا المحور المتقدم، ومن خلال ثلاثين لوحة زيتية، والعديد من الملصقات، جسّد الفنان توفيق عبد العال، أمين سر اتحاد الفنانين التشكيليين الفلسطينيين في لبنان، الألم المنتصر، والمدن المغلقة بوجه الغزاة، والبنادق المشرعة كالنشيد في كل حي وبلدة ومدينة.

■ درس الراحل مبادئ الفن والتصوير في عكا على يد معلمه جورج فاخوري، حيث خطّ عبد العال أولى رسوماته طفلاً متعلقاً بالبحر الذي سيشكّل عنوان المرحلة الزرقاء التي إمتدت حتى سبعينيات القرن العشرين، قبل إنتقاله إلى لوحة تنزع نحو الغموض والتأمل.

■ جماليات الأزرق تعكسها اللوحات التي حملت عناوين «أحلام الصياد»، «الجاروفة»، «مواويل فلسطينية»، «خريف البحر»، «مدينة الأحلام» و«شاطيء الأمانى»، وجميعها تعود إلى العام 1966، في

تشكيل أيقوني للبحر في موازاة لبورتريهاته النسائية التي كانت معظم شخصياتها متفاعلة مع البحر أو الطبيعة غالباً.

■ في تلك المرحلة، ظهرت مفردات أخرى ذات صلة وثيقة بالهوية والوطن بعد حرب 1967، ومع صعود الثورة الفلسطينية، ومنها نساء في زيَّهنَّ الشعب والحصان والصِّبَار وأسراب الحمام، كما إستحوذت الشمس على حيز كبير في لوحاته.

■ في ذاكرته، تختمر صور الرحيل الفلسطيني الأول عام 48، تعشوشب محطات النفي وشوارع الشتات، وتلتصق به كظله. كان يحمل في جعبته توأماً آخر للحزن نما بنموه، وشاخ في الطفولة. ومن تحت الرقابة كان يهرب الشعر إلى دفاتره السرية، يحكي لمسجله كل الأوراق الممنوعة، فتولد رسوماته البكر في حضن المجلات الملتزمة، فينجح في العشق الأول. ومنذ 1960 وأعماله تتمحور حول إبراز الشخصية الوطنية الفلسطينية، «فتاة من عيلوط»، «انتظار»، لوحتان جسدتا آمال الشعب الفلسطيني بانتظار المخلص، عبر نافذة «وجه من فلسطين». هذا المخلص تجاوز «غودو» صموئيل بيكيت، الذي يأتي ولا يأتي، فغودو الفلسطيني جاء حاملاً بندقية حطمت حاجز الصمت. وبالتفاعل مع البندقية، ومن خلال الفرشاة كأداة تعبير حضاري، جاءت لوحة «الطريق»؛ فالثورة لم تفاجئه، لم تدهمه، لقد مهَّد لها بعشرات اللوحات، وولدت في مرسمه قبل أن تتحقق على أرض الواقع، فالفنان يبشر بالثورة ولا ينتظرها.

■ إختبر عبد العال النحت بالخشب في تجربة تناولت الجسد الإنساني بشكل خاص، في أعمال تنتمي إلى النحت الثنائي غائر الأبعاد أكثر من إنتمائها للنحت بمفهومه التقليدي العام، واستأثر موضوع المرأة على مجمل منحوتاته الخشبية، حيث لا زوايا ولا تكوينات حادة، بل إنحناءات وتعرجات رقيقة هادئة تغلف وجوه وأجساد نسائية.

■ لم يحجز نفسه في صالات العرض والمتاحف المتخصصة، فظل يفكر بنقل اللوحة الجدارية إلى الشعب، حتى أوصلها إلى المخيمات والمدارس والساحات العامة. وعبر المخاض، عبر تجربته، وصل إلى نقطة اللاخيار سوى الإلتزام الكامل بقضايا الشعب والثورة، فصار عضواً في الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين وتقابل مع الملتصق كأداة تحريض وتعبئة وجهاً لوجه. وصار همه أن يرتقي بالملتصق إلى مستوى اللوحة، بعد أن جرب اللوحة المباشرة التي تصل إلى مستوى الملتصق، حتى أصبحت ملتصقاته مؤطرة على الجدران وتنتظر دورها في معارض الملتصقات الدولية.

■ تعرّضت أعماله للتدمير أكثر من مرة على يد العدو الصهيوني، أولها في قصف وقع في أيلول/سبتمبر 1982 في بيروت إستهدف «دار الكرامة» التي أقام فيها معرضه آنذاك، كما أحرقوا مرسمه وأرشيفه الذي كان في «مستشفى عكا» بمخيم شاتيلا بعد مجزرة صبرا وشاتيلا في العام نفسه، كما تعرّض منزل عائلته، حيث بقيت لوحاته، إلى القصف في حرب تموز/يوليو 2006، فتضرر جزء منها. لكن إعتداءً أعنف تعرض له عبد العال شخصياً عام 1987، وقع حين حاولت جهة عميلة إغتياله، حيث جرى تحطيم زجاج نظارته على عينيه، ما أدّى إلى فقدانه البصر بالتدريج، إلى أن أصبح كفيفاً فغدت صلته باللوحة من خلال إضافة اللون إلى رسومات تدريب على الخط كان قد نفذها في سنوات ماضية، ثم توجه إلى الكتابة في محاولات شعرية دَوَّنها في عدد من النصوص.

■ يلخص الفنان الراحل غربته في مقابلة صحفية بالقول: «لم أرسم النكبة، بل كنت أرسم إنطباعاتي عن فلسطين ولبنان، رسمت الثورة قبل إنطلاقة الثورة»، رسمت لوحة إسمها «لن يسقط العلم»، تمثل فداً سقط، وفداً آخر يتسلم منه راية الثورة، ولوحات «رقصة السلاح»، «أنشودة شعب» و«معاً إلى فلسطين»، ومع إنطلاقة الثورة إستبدلت الفدائي بالفارس، وانتقلت من الأسلوب الإنطباعي التجريدي إلى الأسلوب السريالي..» ■

القسم الثقافي – مجلة «الحرية»

توفيق عبد العال .. قاربُ عشق على شواطئ المنفى 1938-2002

■ ما تركته الحضارات من مخزون أثري ساهم في تخليد الأمم. وقد كان للفنون التشكيلية بمختلف أساليبها، الدور الهام والرئيسي في تخليد وبقاء تلك الحضارات. وقد ساهمت الآثار العمرانية والمنحوتات والأعمال الفنية الأخرى، وكل ما تبقى مما صنعتها الشعوب البائدة، في نقل حضارتها إلى الأمم والشعوب المعاصرة. وكل ثقافة مهما اتسعت آفاقها لا بُد وأن نجد فيها أطراف متصلة مع منبجها. كذا هو الأمر في الإبداع الفلسطيني، على تعدد إنتاجه، فإن رموز الوطن السليب، الإقتلاع، التشريد، المنفى، الحنين، الخيام، التحدي، الصمود، الثورة، الحرية، العودة، كلها رموز تداخلت في العطاء الإبداعي لشعب يستحق الحياة.

■ وبما أن الفن التشكيلي بكل ما أمكنه أن يحمل صفة الشكل الإنشائي لتصور ما، وهو الممتد في جوف تاريخ هذه الأرض، أرض فلسطين، فقلما نجد فناً تشكيمياً فلسطينياً، سافر في متاحف الرؤية اللونية، دون أن تحمل أعماله جزءاً رمزياً من تاريخ فلسطين ومأساتها، وكذلك هو أيضاً الفنان العكي توفيق عبد العال، هذا المشرّد منذ طفولته إلى أرض أشقاء غرباء، المتعثر على خطى التيه من عكا إلى بيروت، والذي ظلّ يحمل عكا أيقونة عشق منقوشة على جدران قلبه؛ فانقلبت عبر لمسات فرشاته ألواناً وأشرعة وقوارب راسية على شواطئ المنافي، أو لنقل على شواطئ المنفى القسري في مخيم برج البراجنة - الضاحية الجنوبية لبيروت، فتجانست مع روح المكان والإنسان والطبيعة فيه، دون أن يهمل أو يسلو عشقه الطفولي، المنسوج من حلم الوفاء لفلسطين، فلسطين الذاكرة، فلسطين الأرض والإنسان، فلسطين مسيرة الثورة والعودة.

■ قبل أن أبدأ بالكتابة عن هذا الفنان العاشق، رومنسي اللون والحركة، تَوَغَّلت بمحاولة قراءة بصرية سريعة، لأكثر من ثلاثمائة لوحة فلسطينية لعدد كبير من الفنانين الفلسطينيين. بعضها مُحْتَفَظ به، وبعضها موجود في كتب وكتالوجات خاصة وعامة، والبعض الآخر عبر وسائل التواصل الاجتماعي، إضافة إلى مراجعة ما يقارب خمسمائة لوحة من تاريخ الفن، الممتد من عصر ما قبل النهضة - «الرينيسانس»/ Renaissance، وحتى أواسط القرن العشرين.. في كتاب مترجم حمل عنوان « قصة الرسم»، للراوية الباحثة ويندي بيكت، باحثاً من خلال كل ذلك عن تلك الموشحات السريالية العفوية، تلك التي شطح فيها، أو تأبطتها خلسة ريشة الفنان توفيق عبد العال، لتنتشر على بساط عدد قليل من لوحاته، كحالة عفوية لا تدري ماذا تريد أن تقول. فوجدت أن التشابه بينها وبين أعمال أخرى، لكبار الفنانين، كان قليلاً جداً أو ربما معدوم. وأنا أعزو ذلك إلى أن هذه الأعمال اللونية التجريبية التجريدية، جاءت وليدة حالة من الفراغ النفسي، أو هي تعبير عن مرحلة من اليأس التي يمر بها الفنان بين اليومية والأبدية. لكنها كانت تمتاز دوماً، بشيء من الأزرق والبنفسجي المتصلان بألوان بحر عكا.. ذاكرة طيف وحنين، تمثل رد الفعل النفسي العفوي، لما يختزن في أعماق الفنان من عاطفة وهواجس.

■ فأتني أن أذكر ملاحظة مهمة جداً، أن التعامل مع اللوحات من خلال صور مطبوعة في كتالوج، أو من خلال ما هو مخزون عبر الشبكة المحوسبة، لا يمكنه أن يعطي المتلقي تلك الأبعاد والإمكانات الفلسفية في حوارها معها، كما يتعامل بصرياً مع لوحة أصلية، يحيط بها الضوء الطبيعي المنتشر في المكان. لذا، من الممكن أن تحجب الصورة المطبوعة تفاصيل أو انعكاسات لونية لأية لوحة أو عمل فني، فندخل حينها في قراءة مغلوطة لأي عمل كان.

إن التعامل مع لوحات ومنحوتات وتماثيل الفنان توفيق عبد العال، من خلال صور مطبوعة في كتالوج، مع نصوص تتحدث عنه وعن أعماله، شيء جيد لمن يريد أن يتعرف على سيرة وأعمال هذا الفنان. لكنها قطعاً، لا يمكنها أن تكون مادة تشكيلية خام، يمكن التوغل في أبعادها واكتشاف مكنوناتها الفلسفية، المنبعثة

من روح الفنان وقلبه وعقله. فأنا كفاريء بصري، لا يُلهمني ما يُكتب عن الفنان، بقدر ما يُلهمني ما أَسْتَقِرُّه من خلال الإبحار في أجواء أعماله الفنية. لذا أرجو المعذرة إذا ما وقعت في خطأ ما، أو ذكرتُ في مداخلتي شيئاً لم يَرُقُّ لأحد.

■ إن مجرد مقارنة عفوية لأعمال الفنان توفيق عبد العال، تلك المُنجزَة بواسطة المساحات اللونية العفوية التجريدية، وبين الأعمال الأخرى التي تنتمي إلى بداياته مثلاً، أو تلك التي نَسجها على وتيرة التَّعبيرية الإنطباعية، أو تلك الأعمال الخُطوطية، أو منحوتاته الصلبة من خشب الزان المعتقد، لا بد وأن نجد الكثير من الاختلاف بين المرحلة اللونية وتلك المراحل الأخرى. إلا أن الكثيرين ممن كَتَبُوا عَن الفنان توفيق عبد العال تعاملوا بصورة مُحَقَّة مع كافة الرُّموز التي تناولها هذا الفنان المشبع بالحُلم.. فمن زُرقة البحر وقوارب الصيِّد، وأسراب الحُمام والنَّوارس، إلى الأشُرعة المنتصبة في الفضاء الرَّحْب، كما هو الأمر في الحصان والفارس، فالمرأة والطفولة، ومن ثَم إلى الطبيعة المترامية والبيوت والأكواخ، والرُّموز الثَّورية ما بين شمس ساطعة وشمس غاضبة. تلوح دائماً في أعماله نَفْحة الأمل واستمرارية البقاء. وما ذلك إلا رسالة إلى القادم من الزمان، بأن عودة الوطن إلى أبنائه بعودة أبنائه إليه، هو أمر محتوم، لا يمكن التراجع أو التخلي عنه مهما طال الانتظار.

إن خيول توفيق عبد العال خيول جامحة، حتى وهي في حالة التعب، أو في حالة الإنكسار، وفارسه منتصب القامة، وحرابه مشرئية في عمق السماء، وترسُّه جدارٌ ثابت بوجه العاصفة. وهو صامد راسخ كـ«جلمود صخر» فوق جواده. كُلُّ هذه الرُّموز دلالات مُطلقة على أن طريق الثورة هو الطريق الوحيد للخلاص.

■ لم يتناول توفيق عبد العال المأساة الفلسطينية بألوانها الحمرَاء الدموية، مُبتعداً بذلك عن رَصْد وقائع الذَّبْح والقتل المُتكرَّر لأبناء شَعْبنا. لا من باب التَّغاضي أو الإنكار لها، إنما من مُنطلق البَحْث عن سُبُل التَّحدي ووسائل الصُّمود، باعثاً الأمل المتشبث بالبقاء واستمرار الحياة. فَذَهَبَ مُبحراً بكل أُلوانه مُتوغلاً بالوجود. من زَهْوَة الطبيعة، سماءً وأرضاً وبحاراً، إلى بيوت ونوافذ حانية، إلى نساء وأطفال في وضعيات مختلفة، تُعمق في ما بيننا روح التَّعاضُد والحياة. حتى أنه رَسَم من خيالٍ مشبع بالرومانسية «حمام عكا» و«حمام الباش» ولَوَحات أخرى تُجسد روعة التكوين الجسدي للمرأة، بوصفها العُنصر الأهم في مسيرة التَّحدي لصراع البقاء، مما يُذكرنا بلوحاتٍ لنساء عاريات خَلَدَتِهِنَّ أعمال كبار الفنانين، بداية من مايكل أنجلو حتى ماتيس ودالي وبيكاسو. لكن نساء توفيق عبد العال جننَ بِشَطحات إنطباعية تعبيرية، تَحْمِل في مضامينها أنوثة رومانسية متماهية، بعيدة عن إثارة أية غريزة شهوانية، لكل من يهيم في أجوائها.

■ مارس توفيق عبد العال الرسم والتصوير والنحت والتخطيط. كان فناناً دائماً قلق، لهذا تنقل بين الواقعية والرمزية والتعبيرية والسريالية، ويشكل إرثه وثيقة تشكيلية لونية خصبة، ورسالة تحمل في ثناياها حلم وأمل للقادم من الأيام، حتى يحقق شعبنا خلاصه من الإحتلال، ونيل حقوقه المشروعة، في هذا الوطن الذي لا نرضى بوطن سواه ■

زاهد عزت حرش

9/8/2018

ناجي العلي.. المبدع، شهيد الديمقراطية وحرية الرأي التعبير 1937-1987

■ حياة ناجي العلي أغنى من أن تختصر بموته؛ فالإغتيال السياسي، الذي أودى بحياة كانت ذروة في العطاء الإنساني والفني والنضالي، يختزل جوانب رئيسية من تلك الحياة التي احتلت فيها موقعا أساسيا، وبخاصة في شطرها الأكثر نضجا واكتمالا، مسألة الديمقراطية في العالم العربي والنضال في سبيل حرية الرأي. وإذ نقف اليوم في الذكرى السنوية الرابعة لغياب ناجي العلي نشعر كم هو راهن وملح مطلب الديمقراطية وحق التعبير عن الرأي، وكم هي معبرة تلك الرسوم التي خطتها ريشة ناجي المرهفة، من الحمامة الواقفة على طارق المسدس ولسان حالها: «لا للإغتيالات السياسية»، إلى ابن الشعب الذي يتصدى بصدرة العاري قبل أن يسقط مثقوبا بالرصاص صارخا: «لا لكاتم الصوت»، مروراً بالرجل المنكرش الذي يقطع بالفأس الأقاليم الحرة المنتصبة كشجرة الحياة؛ ومن معقول الرأس في إشارة إلى العقل المعتقل، الذي يتلفت خائفاً وأمامه مساحة مرسومة بشعار الديمقراطية، إلى حنظلة الذي يحلم بالديمقراطية المرسومة بالصُّبار، مروراً بابن الشعب الذي يكتب وصيته بعد أن غامر مطالباً بالديمقراطية.

رسوم لا تُنسى محفورة في ذاكرتنا جميعاً تشير إلى الفكرة / المطلب، لدى أبناء شعبنا. فكرة كانت تسكن هذا الفنان الكبير، فالتقاطها مسألة مفصلية، يتوقف إلى حدود بعيدة في ضوء حلها السليم مستقبل مسار حركتنا الوطنية.

■ ناجي العلي هو شهيد الديمقراطية شهيد النضال في سبيل حرية الرأي، هو ضحية الإغتيال السياسي الذي سقطت جرائه كوادرات لامعة في حركتنا الوطنية، وقادة تاريخيين، يضيق المجال عن ذكرهم.

إن شجبنا وأدانتنا وتصدينا الحازم لأسلوب الإغتيال السياسي موقف مبدئي وعملي ممارس، لا يمكن أن نحيد عنه من موقع إنساني ونضالي وطني. وإن كنا قد اختلفنا أحياناً في الرأي السياسي مع هؤلاء أو بعضهم، فهذا سبب إضافي واعتبار راجح كي نعلن تمسكنا بالقيم والمثل التي وجهت نضال ناجي العلي واستشهد في سبيلها، وبخاصة مثل الديمقراطية وحرية التعبير ورفض الإغتيال كأسلوب لتصفية الحسابات السياسية.

■ لقد جرت إضاءات عديدة على الآراء السياسية لناجي العلي فيها الكثير من الصحة وبعض الخطأ. ولعل بعض ما يجانب الصواب هو الكلام عن عقله السياسي، الذي ينأى بنفسه عن الواقعية السياسية ولا يستوعب أحاديث المرحلة في النضال والتكتيك السياسي وميله التبسيطي في مقارنة الواقع المعقد واختزاله إلى ثنائية الأبيض والأسود.

ولا يحتاج المرء لخوض نقاش سياسي مع ناجي العلي ليفهم أن عقله السياسي أكثر تركيباً وتعقيداً من أن يُفسر ضمن هذه الثنائية، وعلى قاعدة هذا التبسيط. فرسومه تشهد على جدلية الاستيعاب في لحظتي التحليل والتركيب للواقع السياسي، ورسومه تقطع بتفوق القدرة على التقاط الجوهر في اللحظة السياسية المعقدة بخطوط مقلّة تنضح بالواقعية، بليغة في التعبير وفعالة في التوجيه.

■ وإن كان ثمة ثنائية في فكر ناجي العلي، فهي قائمة بين غني وفقير، وحاكم ومحكوم، ومُضطهد ومُضطهَد، ولاجيء ومغتصب، لأن الواقع الفلسطيني والعربي قابل لأن يندرج في هذه الثنائيات بسبب حدة الإستقطاب الذي يشهده.

إن ثنائية الترميز عند ناجي العلي ليست جامدة ولا تبسيطية مسطحة. وإن استقرت رموزه لا تتحرك إلا باتجاه تأكيد قسوة ملامحها، فذلك بسبب حدة الاستقطاب واحتدام المواجهة. وأفكاره الأساسية، بميلها الفطري والواعي للتصدي للظلم والعدوان واغتصاب الوطن وحقوق الشعب، ثابتة لا تتحرك إلا باتجاه المزيد من التماسك والتجذر. إن هذه الثنائية في الترميز ناتجة عن قدرة متقدمة في التجريد، أي إكتناه الأساسي من بين التعدد، والأساسي في غمرة الازدحام.

وبهذا المعنى، فهي ليست ثنائية التبسيط بل الوضوح في عينه في المسألة الوطنية والمسألة الاجتماعية، بل في المسألة الوطنية منسوبة إلى جوهرها الطبقي، وهي تحدد الموقع والانتماء إلى الشعب الكادح المظلوم المضطهد في مواجهة عرب أميركا وعرب العدو الإسرائيلي.

■ إن ناجي العلي متفوق الإمكانية ومرهف الإحساس في إعادة عملية التشكيل هذه كل يوم بالتقاط المستجد وبرسم روح ومهام التصدي التي تفرض نفسها من خلال المقاومة، التحدي، روح المثابرة، العنفوان الفلسطيني والثقة بالنصر...

وفي هذا يحضرنا رسم المرأة - فلسطين فوق ركام بيتها، وعلى بقايا الجدار صورة زوجها الشهيد يتحدى بكبرياء الجندي الصهيوني وفي بطنها المكور جنين المسيرة المتواصلة وصرختها الصامتة تدوي: صبرا ... صبرا .. ألا تذكرنا هذه الصورة بيوميات شعبنا في مخيمات لبنان وفي أكثر من مكان، وبيوميات الإنتفاضة الكبرى التي اندلعت بعد شهور قليلة من استشهاد ناجي.

وفي هذا نقول: كم كانت نظرتك إستشرافية وثاقبة أيها الفنان المبدع في النقاط اللحظة السياسية بواقعها الراهن وفي تمثل أبعادها المستقبلية. إن العقل السياسي لناجي لم يكن عاجزاً عن تقبل التكتيك أو استيعاب المرحلة، التي يعتقد بعض القادة في ثورتنا أنهم وحدهم أسياها.

■ كان إيمانه عميقاً بأن الشعب بحسه وخبرته النضالية المتراكمة ونضجه هو سيد التفكير السياسي الواقعي بمراحلته وتكتيكه. والإشكالية تكمن في اختلال العلاقة بين الشعب وهذه القيادة التي عجزت عن إكسابها ذلك المضمون الديمقراطي، الذي وحده يشكل ضمانة الوصول بالثورة والقضية الوطنية إلى بر الأمان. إن هذا ما يفسر حدة ناجي السياسية التي تعكس موقفاً نقدياً عالي النبرة، وأحياناً رافضاً للقيادة المتنفذة القيمة على السياسة الرسمية المعتمدة، وذلك بصرف النظر عن درجة إقترابه أو إبتعاده عن هذه السياسة؛ فالخلل بالنسبة له يكمن في المضمون الديمقراطي للعلاقات التي تقيمها هذه القيادة وأسلوب العمل الناتج عنه، قبل أي شيء آخر.

■ لقد اختار ناجي لنفسه موقع التعبير عن المزاج الشعبي السائد، وأكاد أقول المعارضة الشعبية التي قد لا تنطبق تماماً على أوضاعنا الخاصة كثورة - بأقله حتى الآن؛ هذا المزاج الذي يضرب جذوره في تراث وتاريخ طويل يعود إلى 70 سنة خلت، في إطار ذاكرة شعبية مُسيّسة تعلمت ألا تمحض ثقتها بلا شروط أو تحفظات لقيادتها، كما تراها في المؤسسة المترتبة هرمياً، ولا أقول «السلطة»، وإن كانت قيد التشكل، والتي تنزع في علاقاتها الداخلية ومع شعبها إلى القفز عن الديمقراطية وإلى التسلط والأسلوب الأوامري البيروقراطي، مما يوفر المناخ المؤاتي لتعزيز ميول المساومة لدى بعض القيادات والتي اعتقد ناجي - وأحياناً بحق - أنها تكون على حساب المكاسب الوطنية الفلسطينية وتلحق الضرر بالقضية الوطنية.

وفي الطرف الراهن الذي تمر فيه قضيتنا الوطنية في مواجهة السياسة الأميركية بأخر تجلياتها، تبرز الحاجة الملحة إلى ذلك الصوت الوطني الفلسطيني والديمقراطي الأصيل، كي ينطلق موضعاً ومعبأً ومحرضاً برسومه، التي يساوي كل رسم منها دسنة من البيانات ■

فهد سليمان

الفصل السادس

قادة من الجبهة الديمقراطية

- عمر القاسم
- أبو عدنان
- هشام أبو غوش
- أبو خلدون
- خالد عبد الرحيم
- خالد نزال
- سامي أبو غوش وزوجته مها
- طلال أبو ظريفة

عمر القاسم .. قائد الحركة الأسيرة 1941-1989

■ ولد الشهيد القائد عمر محمود محمد القاسم في الثالث عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 1941 في حارة السعدية الواقعة داخل أسوار مدينة القدس القديمة، من أبوين متوسطي الحال. وترجع أصول عائلة القاسم إلى بلدة الطيرة القريبة من حيفا، التي أقامت فيها حتى عام 1911، وبعدها إنتقلت إلى قرية «حبله» الواقعة قضاء محافظة قلقيلية، حيث ما زالت عائلة القاسم تقيم فيها حتى يومنا هذا.

أما والد الشهيد عمر، فبحكم عمله كسائق في إحدى شركات نقل الركاب في ذلك الوقت، فقد كان كثير التنقل والترحال من قرية إلى أخرى، ومن مدينة إلى أخرى. وكان المستقر الدائم للوالد الكريم داخل أسوار مدينة القدس، التي أحبها بشكل خاص لمكانتها المقدسة واحتوائها على كثير من المعالم والشوارع والأحياء القديمة، إضافةً إلى كونها مقراً لعمله.

■ تزوج محمود محمد القاسم/ والد الشهيد في عام 1938، وأحضر زوجته، والتي بقيت على ذمته حتى يوم وفاته في 4/3/1989، من بلدة سلمة. وأنشأ أسرة كبيرة، ضمت تسعة أولاد: ستة من الذكور وثلاثة من الإناث؛ وكانت الأسرة، ما زالت تعيش في ضواحي مدينة القدس في حي الشيخ جراح حتى وفاة الشهيد عمر، ورغم تشتت معظم أفراد العائلة لأسباب كثيرة، واضطراهم للعيش في عدد من الدول العربية المجاورة، من أجل الدراسة والعمل، إلا أن الوالدة الكريمة كانت ما زالت متمسكة بمنزلها، وإلى جانبها أحد أبنائها وإحدى بناتها.

■ يوم الرابع من حزيران/ يونيو من هذا العام، تصادف الذكرى التاسعة عشرة لاستشهاد القائد الوطني عمر محمود القاسم، وهي الذكرى العزيرة على قلب كل مواطن فلسطيني حر، وعلى كل أبناء شعبنا المناضل في كل مكان، فأصدقاء الشهيد ورفاقه في السجن وخارجه وفي كل بقعة من أرض الوطن، يعرفون من هو الشهيد عمر القاسم، وإذا كنت أحيي ذكرى استشهاد أخي، فإنني في الوقت عينه، أحيي ذكرى كل الشهداء الأبطال، الذين سقطوا على ثرى وطننا فلسطين، خلال معركة النضال الطويلة والمريرة ضد الاحتلال الصهيوني البغيض، فرووا وطهروا بدمائهم الزكية أرض الوطن، فزادوها قدسية.

■ إستشهد القائد عمر القاسم بعد اعتقال دام أكثر من واحد وعشرين عاماً، قضاها في غياهب سجون الاحتلال، منتقلاً من سجن إلى آخر، ومن زنزانة إلى أخرى، بحيث لم يبق سجين واحد لم يعرفه، أو لم يلتق به؛ فكل السجناء منذ عام 1968 وهو تاريخ إعتقاله، وحتى يوم استشهاده في الرابع من شهر حزيران/ يونيو 1989، عرفوه مناضلاً صلباً، وقائداً فذاً في سجون الاحتلال، مارس النضال داخل السجن وخارجه، بأروع صورته، وأطلق عليه زملاءه بالمعتقل لقب «شيخ الأسرى والمفكرين»، لما كان يتمتع به من قوة وبأس، قوة بالفكر والإرادة، حيث اعتبره زملاؤه من أبرز المفكرين والمثقفين، الذين دخلوا المعتقلات الإسرائيلية، كما لقبه شعبه بـ «مانديلا فلسطين».

■ يقول أخي الشهيد في إحدى رسائله إلى أحد أصدقائه خارج السجن: «لكل كائن حي دورة حياة، وبعد أن تكتمل هذه الدورة، فإن الحياة تطرحه جانبا، ويبقى كذلك، إلى أن يلفظ أنفاسه الأخيرة؛ ولكن، إذا قرر أحدهم، أن لا يقف جانبا، فقد يُضطر إلى مضغ طعامه مرتين، الأولى حقيقية، وفيها يتذوق طعامه ويشعر بلذته، وبالمرة الثانية تكون زائفة، حيث لا يشعر بلذة أو طعاماً، وإنما مجرد أن يملأ الفم بالطعام لسد جوعه؛ كل هذا لأعبر لك، عن مدى تذوقي لطعم الحياة، فالأحداث تتكرر أمامي، فتبدو زائفة أحياناً، وإذا ما اضطرت لصنع أحداث جديدة، فهذا يتطلب مني ثمناً باهظاً».

■ وعن خصائص السجن يقول أخي في رسالة أخرى: «إن العزاء الوحيد لنا بالسجن، هو وجودنا على أرض الوطن، والتعرف على أبناء صهيون عن قرب، من خلال وجودنا معهم وجها لوجه، أنتم ربما تقرؤون أو قرأتم عن الصهيونية في الكتب والمجلات، ولكننا ونحن داخل السجن، نلمسها طيلة أربع وعشرين ساعة في اليوم». وقال لي قبل استشهادي: «إذا استشهدت، فلا تأخذوا ثمن استشهادي، فروحي فداء حبي لوطني ولشعبي».

■ لم يكن الشهيد القائد مناضلاً عادياً، بل كان دوره مميزاً منذ اعتقاله وحتى يوم استشهادي، فنضاله يمثل تاريخ ربع قرن من كفاح شعبنا الفلسطيني، وما كتبه عنه رفاقه وأصدقائه ومن سمعوا عن نضالاته سواء شعراً أو نثراً أو فكراً لشيء يقرب من الخيال. ورغم فاشية، ونازية الحركة الصهيونية، فقد إرتقى أخي الشهيد بأخلاقه ومبادئه إلى القمة، حيث قال في أحد رسائله - 31/7/1986:

«لن نسمح للحقد والممارسات الفاشية والعنصرية الصهيونية، أن تخلق في نفوسنا الرغبة في الرد عليهم بالمثل، والنظر للديانة اليهودية بشكل عنصري، فإننا سنحارب العدو، بما يخدم القيم الوطنية والإنسانية والسلام العالمي، رغم أننا نتألم للمآسي التي تسببها حربهم العدوانية ضدنا، وممارساتهم العنصرية ضد أبناء الشعب الفلسطيني، وضد أطفاله ونسائه، والرجال الكبار بالسن منهم، وللشعوب العربية، وحتى للإسرائيليين أنفسهم».

■ عندما سأله أحد قادة العدو الصهيوني وهو معتقل لديهم، فيما إذا أفرجوا عنه، هل سوف يلتزم ببيته ويمتنع عن القيام بأي نشاطات سياسية ضدهم، جاء رده واضحاً وصريحاً وغفويّاً: «لقد أمضيت أكثر من عشرين عاماً في الإعتقال، ولا يهمني مصيري الشخصي، ما يهمني هو قضية شعبي، وطالما بقي كابوس الإحتلال على صدر شعبي، سأبقى أقاتلكم».

■ عندما أفرج العدو عن مجموعة من زملائه بالسجن، ولم يكن ضمن المجموعة التي أفرج عنها، سما الشهيد بروحه وإحساسه، وصعد إلى القمة، حيث جمع رفاقه الأسرى الذين سيفرج عنهم وخاطبهم قائلاً: «إنه إنجاز كبير، أن يتم الإفراج عنكم، ونحن نعيش الآن عرساً فلسطينياً وطنياً، وعلينا أن نعمل على إنجازه، أما نحن الذين سنبقى في داخل المعتقل، فعلياً أن لا نحزن؛ وحتى لا يفقد رفاقنا وإخوتنا فرحتهم، فعلياً أن نفرح معهم».

■ وبعد خروج بعض المعتقلين واستقرارهم خارج المعتقل، سمع عن زواج البعض منهم، فكتب لأحد أصدقائه يقول: «إنني مسرور حقاً عندما سمعت بزواج عدد من الأسرى المحررين، أما بالنسبة لي، فلم أكن أتصور في حياتي أن يتأخر زواجي، لأنني بطبيعتي متفائل، أحياناً أفكر بأنه لن يكون لي أولاد شباب، فالتغيير العمري للأسرى بالسجن، جعلني أشعر بأنني أب، وربما جد في آن معاً، فهناك الكثير من الشبان المعتقلين، ينظرون لي كأب، وهذا ما يفرحني، لأنني أحبهم فعلاً كأنهم أبنائي، وبعض المعتقلين صغاراً جداً بالسن، ويحبونني كجد لهم، والباقيون ينظرون لي كأخ، لأنهم من جيلي، فأنا بالحقيقة، أعيش بين أهل، يحبون بعضهم بعضاً، والمحبة ثمرة العطاء في كل شيء، وسعيد ذلك الإنسان، الذي يجعل حياته كلها عطاء».

■ ومن الأقوال الخالدة للشهيد القائد: «في السجن، لا ينتهي دور المناضل، بل يبدأ، وهو نضال مكمل ومتربط مع النضال خارجه، يجب أن نصمد على هذه الجبهة، «جبهة المعتقلات»، وسوف نصمد رغم الإختلال الواضح والفادح في موازين القوى، لصالح العدو».

■ بعد خروج بعض المعتقلين واستقرارهم في الخارج، كتب لأحد رفاقه: «سعداتي بتحرركم، طفت على حياتي، وبت كأنني أسبح في بحر من النشوة، إن هذا ليس كلاماً مبالغاً فيه، فليس من الممكن لإنسان مثلي، أن يجد طعماً للحياة بعد كل ما جرى، لولا هذا الشعور العميق من السعادة، الذي يسيطر على نفسي، نتيجة لتحرر هذا العدد الكبير من الأحباء».

ومضى يقول: «لكن يا أخواتي، بالرغم من ذلك، فأنا لست نادماً لوجودي في السجن، لأن واجبي تجاه وطني وشعبي ومبادئي، أهم بكثير من واجبي تجاه أهلي أو أخواتي، وأعتقد أنكم تؤيدوني في ذلك».

■ وفي رده على رسالة من إحدى أخواته، يقول: «لقد قرأت رسالتك، وتأثرت بها جداً، فقد كانت رسالة مليئة بالحب والألم، ومليئة بالحرارة والصدق، وليس شكل الكلمات هو المهم، وإنما جوهرها و باعثها، وإن كلماتك مهما كانت قاسية أو جميلة، فهي واحدة، لأن مبعثها الحب والصدق، ومع هذا، إنكم بالنسبة لغيركم محظوظون، فهناك فتيات خسرن تعليمهن، وأخريات خسرن حياتهن، وأخريات يقضين حياتهن في السجن، ولكنكن تذهبون وتجيئون بكامل الصحة والسعادة، كذلك بالنسبة لإخواني فهم طيبون، ولكني لن أغفر لهم تقاعسهم عن واجبهم الوطني، واهتمامهم بأنفسهم و بزواجاتهم فقط».

■ في الذكرى الخامسة عشرة لاستشهاده كتب عبد الناصر عوني فروانة وهو أسير محرر ويعمل بوزارة الأسرى والمحررين بغزة بتاريخ 4/6/2004:

«من لم يعرف عمر القاسم، لا يعرف الحركة الوطنية الأسيرة... فهو علم من أعلامها ورمزاً من رموزها، وأحد أبنائها الأساسيين، وكان على الدوام عماداً أساسياً من أعمدتها الراسخة... فكان في حياته قائداً فذاً، ومناضلاً شرساً، وأسيراً شامخاً، ونموذجاً رائعاً، وفي مماته شهيداً خالداً، وقديلاً لن ينطفئ نوره، نعم هذا

هو عمر القاسم لمن لا يعرفه، بل يعجز القلم عن وصف خصاله وتجف الكلمات حينما تسرد سيرته، وتتحني القامات تقديرًا، حينما نتحدث عن بطولاته ومواقفه» ■

أحمد القاسم

حزيران/ يونيو 2008

عمر القاسم.. «مانديلا فلسطين» عنوان وتاريخ وهوية 1941-1989

■ ولد عمر القاسم في حارة السعدية بالبلدة القديمة في مدينة القدس المحتلة - 13/11/1941. درس الابتدائية في المدرسة العمرية القريبة من المسجد الأقصى، إنتقل بعدها إلى المدرسة الرشيدية التي أنهى دراسته الثانوية فيها - 1958. كانت الثانوية بمثابة معقل وطني ومركز للنشاط السياسي الذي تنطلق منه المظاهرات الطلابية التي تتحول إلى مظاهرات شعبية. عمل عمر القاسم مدرسًا في القدس، وفي نفس الوقت التحق بكلية الآداب بجامعة دمشق بالإنسحاب، وتخرج منها وقد حاز على شهادة الليسانس في الأدب الإنجليزي عام 1963.

■ إرتبط عمر القاسم منذ صغره بالعمل الوطني خلال مرحلة دراسته الثانوية. إنضم إلى حركة القوميين العرب في عمر 17 عامًا؛ بعد حرب حزيران/يونيو 1967، لعب عمر القاسم دوراً في تنظيم المقاومة الشعبية بالقدس، وقد إنعكس نضاله على مهنته في التدريس حيث ربط التعليم بالتحريض السياسي، وكان في

مقدمة المظاهرات الشعبية المنددة بالإحتلال. وبسبب نشاطه الوطني وانتسابه لصفوف حركة القوميين العرب، أصبح على رأس قائمة المطلوبين في القدس، لكنه نجح بالإفلات من حملات الإعتقالات بعد تعرض منزله للمداهمة مرات عدة.

■ تحت هذه الظروف، غادر إلى الأردن والتحق هناك بقواعد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، التي تأسست إمتداداً للفرع الفلسطيني من حركة القوميين العرب بنهاية 1967، وانتخب عضواً في لجنتها المركزية. تلقى العديد من الدورات العسكرية إلى أن أصبح عضواً في القيادة العسكرية للجبهة، وتسلم مسؤولية القطاع الأوسط في العام 1968، وعمل على إعداد وتدريب خلايا العمل الفدائي تحضيراً للقيام بعمليات عسكرية ضد الإحتلال.

■ إجتاز ليلة 28 تشرين أول/أكتوبر من العام 1968 نهر الأردن نحو فلسطين على رأس مجموعة فدائية، وكان الهدف جبال رام الله بهدف التمرکز فيها لشن عمليات عسكرية ضد قوات الإحتلال ومستوطنيه. إلا أن المجموعة إصطدمت قبل أن تصل إلى هدفها بكمين إسرائيلي قرب بلدة كفر مالك، فوقع إشتباك مسلح إنتهى بوقوع أفراد المجموعة في الأسر بمن فيهم جرحاها، بعد نفاذ ذخيرتهم.

■ أخضع عمر ومجموعته لتعذيب قاس، لكن هذا لم يمنعه في المحكمة العسكرية من إثارة قضية إلزام سلطات الإحتلال على التعامل معهم كأسرى حرب، وفق ما تنص عليه القوانين والمواثيق الدولية وأصر على حضور الصليب الأحمر الدولي، الذي سجل سابقة في هذا الإطار لتثبيتهم كأسرى حرب. وبعد عدة جلسات حُكم على عمر بالسجن المؤبد مرتين و27 سنة، بتهمة الإنتماء للمقاومة والقيام بعمليات عسكرية. وبذلك، بدأ عمر القاسم مرحلة جديدة من العمل النضالي في صفوف الحركة الوطنية الأسيرة داخل سجون الإحتلال.

■ في شباط/فبراير 1969، أعلن عن إستقلال الجناح اليساري بالجبهة الشعبية تحت إسم جديد، أضحي الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين وانحاز عمر القاسم حينها للجناح اليساري وأصبح من أبرز قادة الجبهة الديمقراطية وعضواً في لجنتها المركزية ومسؤولها التنظيمي داخل السجون. كرّس القاسم ومنذ بدايات الأسر إهتمامه لتحويل السجون إلى أكاديميات وطنية، فعمل على إدارة حلقات نقاش حول الخيارات السياسية ومسار القضية الفلسطينية، بالإضافة لشرح الأدبيات الفكرية والفلسفية، كما عمل على الترويج للبرنامج المرحلي الذي طرحته الجبهة الديمقراطية، ليتحول لاحقاً إلى البرنامج السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية.

■ ركّز عمر القاسم إهتمامه على شؤون الأسرى وأوضاعهم، وقدم دراسات قيّمة لأوضاع المعتقلين، والتجربة الكفاحية للحركة الأسيرة والمراحل التي مرت بها، وذلك في إطار عملية تثقيف وتعبئة وإعداد نفسي ومعنوي للأسرى في مواجهة إدارة السجون، في سياق النضال من أجل تحسين ظروف الإعتقال. ولعل أبرز ما كتبه عمر هو سلسلة مقالات تُشخّص أوضاع الأسرى داخل السجون ومراحل تطور الحركة الأسيرة، وكذلك تجارب إضرابات الحركة الأسيرة، وقد كتب في تلك السلسلة 34 مقالاً، بالإضافة إلى إصدار 126 كراساً تناولت المراحل السياسية التي مرت بها الثورة الفلسطينية.

ترافق هذا الجهد النظري مع قيادة حملات الإحتجاج داخل السجون، فقاد عمر مع الأسرى معارك الإضراب عن الطعام، وكان حريصاً بالدرجة الأولى على العمل الوحدوي، ما منحه مكانة بارزة ومميزة داخل الحركة الأسيرة، وذلك بشهادة كافة الأسرى رغم اختلاف توجهاتهم الفكرية والسياسية والتنظيمية. وعمل عمر على بناء الجسم التنظيمي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في المعتقلات الإسرائيلية، وأقام دورات تثقيفية للكوادر، وتخصيص دورات لتجارب حركات التحرر العالمية في حرب التحرير الشعبية، وكان له الفضل في تأسيس صحافة المعتقلات، عبر العمل على إنشاء صحيفة في كل معتقل، ومجلة موحدة للحركة الأسيرة.

■ تشهد مسيرة عمر القاسم داخل السجون له بالكثير من المحطات الكفاحية والمواقف الصلبة. فعندما نفذت مجموعة تابعة للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين عملية في مستوطنة «معالوت» في أيار/مايو 1974، وأسرت المجموعة عدداً من الإسرائيليين داخل المستوطنة مطالبة بإطلاق سراح 27 معتقلاً فلسطينياً من سجون الإحتلال مقابل الإفراج عنهم، إستدعت سلطات السجون عمر، وقاموا بعصب عينيه ووضعوه على متن طائرة مروحية برفقة رفيق دربه في السجون، الشهيد أنيس دولة، واتجهوا بهما إلى معالوت، ثم وضعوهما على متن مجنزرة، وطلبوا منهما دعوة الفدائيين لتسليم أنفسهم، فرفضا القيام بهذه المهمة. وعندما أصرت سلطات الإحتلال، أمسك عمر القاسم بمكبر الصوت وصاح بأعلى صوته: «أيها الرفاق نفذوا أوامر قيادتكم بحذافيرها ولا تستجيبوا لمطالب الأعداء»، فخطف جنود الإحتلال المكبر منه وانهالوا عليه بالضرب داخل المجنزرة، عقاباً على ما قام به، ثم أعادوه إلى زنزانه إنفرادية.

■ أثار هذا الموقف ضعيفة وحقداً لدى الإسرائيليين ضد عمر، فرفضوا إدراج اسمه في كل عمليات تبادل الأسرى التي حدثت فيما بعد، لكن صلابته عمر النفسية وإيمانه بقضيته كانت الوسيلة الوحيدة لمواجهة الرد الإنتقامي القاسي الذي عمد إليه الإحتلال، في محاولة لضرب معنوياته وتحطيمه نفسياً عن طريق إيهامه بأن لا قيمة له في عين تنظيمه؛ فبعد عملية التبادل التي وقعت بين الجبهة الشعبية - القيادة العامة والإحتلال عام 1985، خرج معظم رفاقه في الأسر وتم إستثناء اسمه من قائمة المفرج عنهم، لكن عمر جسد موقفاً وحدوياً يعبر عن الأبعاد الإنسانية العميقة في شخصيته، وذلك حين تحدث في ندوة تضم كل الذين سيفرج عنهم حيث قال: «إنه إنجاز وطني كبير، ونحن نعيش الآن عرساً وطنياً، وعلينا أن نعمل على إنجاحه، ونحن الذين سنبقى، لا نحزن حتى لا يفقد الرفاق والأخوة فرحة خروجهم. علينا أن نفرح معهم»، وبعد ذلك إقترح برنامجاً بهذه المناسبة وشارك فيه بفعالية.

■ بعد خروج المعتقلين واستقرارهم كتب لأحد رفاقه: «سعادتي بتحرركم طغت على حياتي وأصبح في بحر من النشوة، إن هذا ليس كلاماً مبالغاً فيه، فليس من الممكن لإنسان مثلي أن يجد طعم الحياة، إلا أن هذا الشعور العميق من السعادة الذي يسيطر على نفسي نتيجة لتحرر هذا العدد الكبير من الأحباء». رأى الإحتلال أن تأثير عمر القاسم تجاوز حدود المعتقل، وبعد اندلاع الإنتفاضة الكبرى عام 1987 حاول الإحتلال الدفع بخطوات للتهدة في محاولة لاحتواء زخم الإنتفاضة المتصاعد. وفي أثناء مقابلة إسحق نافون، الرئيس الإسرائيلي السابق مع عمر القاسم داخل السجن، طلب منه عدم القيام بأي نشاط سياسي، مقابل الإفراج عنه والسماح له بالإقامة في القدس. فجاء رد عمر حازماً: «أمضيت عشرين عاماً في الإعتقال، ولا يهمني مصيري الشخصي، ما يهمني هو قضية شعبي، وأن لا يبقى كابوس الإحتلال على صدر الشعب. سأبقى أناضل وسوف يأتي اليوم الذي أتححر فيه».

■ كان عمر قائداً وقوة متفقا عليه، وكان مرجعاً وعلى درجة عالية من الوعي وقوة الإقناع. ومن المحطات الهامة في تاريخ الحركة الوطنية الأسيرة، أنه قاد، عشية إنعقاد الدورة 19 للمجلس الوطني الفلسطيني بالجزائر في تشرين الثاني/نوفمبر 1988، النقاش السياسي في كافة السجون والمعتقلات، من أجل صياغة المهام الراهنة للحركة الوطنية الأسيرة، وهي النقاشات التي وُحِّدَت الأسرى على برنامج سياسي موحد، مطالباً الدورة 19 بإعلان قيام دولة فلسطين.

■ عانى عمر القاسم خلال مسيرة حياته خلف القضبان، على مدار 21 عاماً من العديد من الأمراض بسبب التعذيب والتنكيل، ما تحول إلى مرض عضال في ظل سياسة الإهمال الطبي المتعمد من قبل إدارة مصلحة السجون، التي ضربت بعرض الحائط كافة المناشدات الصادرة عن الهيئات والمؤسسات الإنسانية والدولية الداعية لإطلاق سراحه، إذ أبقتة يكابد أوجاع المرض في مستشفى السجن. في تاريخ 4 حزيران/يونيو 1989، أعلن عن استشهاده عمر القاسم جراء تفاقم مضاعفات المرض، بعد أن أمضى واحداً وعشرين عاماً في سجون الإحتلال، وهي أطول فترة يمضيها معتقل فلسطيني في تلك السجون ذلك الوقت، وقد أطلق عليه لقب «مانديلا فلسطين».

ووريّ الشهيد عمر القاسم الثرى في مقبرة الأسباط في مدينة القدس، وشارك في تشييع جثمانه الآلاف من الجماهير والقيادات السياسية والوطنية، كما أقيمت للشهيد مسيرات وجنازات رمزية، ومظاهرات عمت كافة أرجاء الأرض المحتلة. لم يعيش عمر طويلاً، لكنه بات رمزاً لشجاعة الفلسطيني وصموده، وستبقى مسيرته فخراً لكل أحرار العالم، وبوصلة نضالية للحركة الأسيرة ■

محسن القيشاوي

7/5/2021

أبو عدنان - عبد الكريم حمد قيس .. سنديانة فلسطين 1927 - 1992

■ برحيل القائد والمناضل الكبير أبو عدنان، سنديانة فلسطين، فقدت الجبهة الديمقراطية والثورة الفلسطينية وحركة التحرر العربية، واحداً من أبرز مناضليها وأشدهم إخلاصاً لمبادئه ومعتقداته. لقد أمضى القائد الكبير أبو عدنان حياته كلها، من أجل قضية شعبه ووطنه، ومن أجل قضايا التحرر والتقدم العربية، ومن أجل حرية وإستقلال فلسطين، وعودة أبنائها اللاجئين إلى ديارهم، ورحل أبو عدنان مثقلاً بالمرض والتعب، متسلحاً بروح الشباب واليقين بعدالة قضية شعبه وواجبه في استعادة حقوقه الوطنية. رحل عنا أبو عدنان، مخلفاً سمعة نضالية عظيمة وإرثاً كفاحياً ناصعاً، نشأت على يديه أجيال من المناضلين الأشداء تتلمذوا على يده، واستمدوا من خبرته وصلابته قوة مضاعفة في مواجهة التحديات الهائلة، والمصاعب والمؤامرات الهادفة للحؤول دون انتزاع شعبنا الفلسطيني لحقوقه الوطنية، حقه في العودة وتقرير المصير والدولة المستقلة.

■ عاش مناضلنا الكبير أبو عدنان تجارب غنية من النضال الوطني التحرري العربي، والنضال الوطني الفلسطيني، وكان دائماً مناضلاً وقائداً صلباً مخلصاً متفانياً، عانى أشكال القمع والملاحقة والسجن والإهانات على يد زبانية النظام، ما عَرَّض حياته أكثر من مرة للخطر، بقي على الدوام مرفوع الرأس، موفور الكرامة، مؤمناً بعدالة قضيته، وفيماً لرفاقه ولأبناء قضيته وشعبه، وكان على الدوام محط إحترام أبناء شعبه، والشخصيات والرموز الوطنية والعربية عرفت، واحترمت فيه الإخلاص والتفاني والنفس الطويل في النضال والإستعداد الدائم للمثابرة على دربه مهما بلغت الصعوبات.

■ أبا عدنان ... نفتقدك في هذه الأيام الدقيقة من عمر قضيتنا ومسيرة شعبنا ... نفتقد إيمانك الراسخ وبساطتك النموذجية وحبك العميق لشعبك وقضيتك ... نفتقد رجلاً كبيراً عاش واستشهد من أجل فلسطين. ومن أجل كل القضايا النبيلة ... نفتقد قلباً كبيراً إتسع لكل العواطف الجياشة، وللعطاء غير المحدود، قلبٌ توقف قبل الأوان متعباً، ويخفق ويعمل ويسابق الزمن سعياً لتحقيق العدالة التي داسها المحتلون بأقدامهم، وتعامل آخرون معها بمعايير مزدوجة، لم يكن ليقبل بها أبو عدنان.

■ قلب كبير توقف عن الخفقان ورحل عنا، وسنديانة شامخة منتصبه ، راسخة في أرض الأجداد وفي وجدان شعبه الفلسطيني ومناضلي ثورتنا وإنتفاضتنا وجبهتنا. سنديانة سامقة، مستقيمة الجذع، متجذرة عميقاً في الأرض وفي الذاكرة ... حتى تتحقق أهداف الشعب في العودة والحرية والإستقلال الوطني■

نايف حواتمة

آب/ أغسطس 1992

أبو عدنان – عبد الكريم حمد قيس .. عاش من أجل فلسطين 1927 - 1992

■ أبو عدنان، الفلسطيني الطيب، المشرّد منذ صباه خارج وطنه، المناضل باستمرار من أجل هذا الوطن، ومن أجل حقوق شعبه التي ديست بأقدام الغزاة والجبايرة العتاة، الذين وقفوا معهم باستمرار، كان مريضاً بالقلب منذ زمن طويل، ولكن مرض القلب هو أحد الأمراض الفلسطينية الدارجة، هذا من جانب، ومن جانب آخر، لم يكن أبو عدنان بعيداً عن التأثير بكل ما يحيط به من أحداث، وما يحيط بشعبه من آلام ومصاعب.

■ لم يعد سراً أن أبا عدنان تحسس كثيراً من صيغة التسوية التي طرح الأميركيون خطوطها العريضة، في أواخر العام 1991 من بوابة مؤتمر مدريد - واشنطن، وتلمس أبو عدنان أن قضية المشردين/ اللاجئين، أي قضية أكثر من نصف الشعب الفلسطيني، باتت مطروحة، من قبلهم للتصفية، عبر التوطين والتهجير المتجدد، وهو ما اتضح بجلاء كبير في مطلع العام 1992، مع انعقاد مؤتمر موسكو متعدد الأطراف، ومن ثم إجتماع لجنة اللاجئين المنبثقة عنه في أوتواوا - كندا، التي بحثت بقضيتهم بمنطق تنموي - معيشي، بمعزل عن المضمون الوطني لقضية اللاجئين القائم على حق العودة إلى الديار والممتلكات. وأكثر من ذلك، كان لدى أبي عدنان خوف كبير حتى على مصير قضية الإستقلال الفلسطيني، وأبو عدنان كان وطنياً فلسطينياً حازماً ووطنياً عربياً وفياً للأفكار التي حملها منذ صباه، منذ فترة الصعود الكبير لحركة التحرر العربية في الخمسينيات والستينيات، وأبو عدنان من الرعيل الحازم في عدائه للإمبريالية - والإمبريالية الأميركية تحديداً، ولم تكن تريحه ظواهر التدخل الأميركي في الشؤون الفلسطينية، وتناغم بعض الفلسطينيين مع هذا «العصر الأميركي»، كما يسميه البعض.

■ كانت لدى أبو عدنان ثوابت قوية حازمة وإخلاص لا متناه لقضية شعبه الفلسطيني وقضايا العرب، والكادحين منهم خاصة، كان حسه الطبقي فطرياً، كما كان الحال بالنسبة للفنان الشهيد ناجي العلي، الذي كان أحد طلابه في مخيم عين الحلوة في جنوب لبنان، حين كان أبو عدنان مدرساً في مدارس وكالة غوث للاجئين الفلسطينيين (الأونروا)، وكان ناجي تلميذاً شقيماً وموهوباً فيها، توسّم فيه أبو عدنان تلك السمات التي جعلته من أهم المبدعين في عالم الرسم الكاريكاتوري.

كان أبو عدنان يرى حوله تراجع وإنهيارات حركة التحرر العربية (ومعسكر الاشتراكية السوفيتية الذي تحالف ودعم هذه الحركة) كآلام شخصية، لم يكن يفصح عنها إلا للقلائل من حوله، كل ذلك علاوة على الصعوبات الصحية التي كان يعاني منها أكثر من فرد من عائلته الصغيرة، الملتزمة هي أيضاً بقضية النضال.

■ وكما كان يعرف الجميع، كان أبو عدنان متقشفاً في حياته وملبسه، ولم يترك وراءه سوى سمعته النضالية وسيرته الطيبة، والقوة التي يشكلها بالنسبة للعديد من الذين عرفوه أو تربوا على يده، بالمعنيين، التعليمي والنضالي.

■ كان أبو عدنان، ابن قرية نَحْف الواقعة في مركز منطقة الشاغور بين جبال الجليل الأعلى وجبال الجليل الأسفل، ثم اللاجيء في مخيم عين الحلوة الكبير قرب مدينة صيدا اللبنانية المتعاقبة، منذ زمن بعيد، مع فلسطين وقضيتها، كما جسد ذلك ابن صيدا البار وصديق أبي عدنان الشهيد الكبير معروف سعد، الذي كان إستشهاده - 1975 إحدى الإشارات الأولى لإنطلاقة حرب صعبة عاشها لبنان، أكلت الأخضر واليابس، وطحنت سنوات عديدة من عمر البشر فيه، من لبنانيين وفلسطينيين وعرب آخرين، كان أبو عدنان قريباً دائماً من أبناء المخيمات الفلسطينية، ومن بسطاء المنافي الفلسطينية الذين يشعرون دائماً بأنه واحد منهم، والآلام التي لحقت بالمخيمات الفلسطينية في لبنان، وبشعبي فلسطين ولبنان ككل، كان يعيشها أبو عدنان بحساسية كبيرة، وكانت تنعكس على مزاجه وصحته.

■ عاش أبو عدنان حياته من أجل شعبه وقضيته الوطنية، والحديث عن «إفناء الحياة» خدمة لقضية بعينها، ينطبق عليه بشكل خاص، ولذلك له دين علينا، دين الوفاء للقضية التي عاش واستشهد من أجلها، قضية كادحي العرب، الذي حمل، لفترة من الزمن، راية وحدتهم وتحررهم وتطورهم، وبقي حتى النهاية يؤمن إيماناً عميقاً بهم وبها، رغم كل الإنتكاسات.

■ في ذمة الخلود يا أبا عدنان، ونعاهدك أن نكمل هذا المشوار الصعب بنفس الحزم واليقين، من أجل أطفال الحجارة ومن أجل أبناء المخيمات الفقيرة، من أجل شعب لا يريدون له أن يكون حراً سيداً على أرضه، وأملنا جميعاً بهؤلاء الأطفال، الذين يستشهدون اليوم برصاص العدو الإسرائيلي، الذي يطاردهم ليل نهار، أملنا بهذا الشعب الصلب الذي قال عنه شاعر الأرض الفلسطينية توفيق زياد، بعد أحد مآسيه الكبرى المعاصرة، كما جسدتها «النكبة»، أنه «شعب ذو سبعة أرواح» ■

داود تلحامي
آب/ أغسطس 1992

شهادات

قالوا في «أبو عدنان» ...

■ إن فقدان المناضل أبو عدنان من صفوفكم هو خسارة لكم ولنا، خاصة في هذه الظروف التي يجتازها النضال الوطني الفلسطيني. وفي ذاكرتنا الروابط الكفاحية التي جمعتنا والرفيق المناضل أبو عدنان، وهي صفحة ناصعة في التاريخ الوطني ■

د. جورج حبش
الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

■ عرفته منذ أكثر من أربعين سنة، لم يَهْن يوماً ولم يستكن لحظة، كان حركة دائمة بإيمان لا يعرف اليأس، وعزيمة لا تعرف الكلل. أبو عدنان واحد من رموز الجليل الذي تحمل أعباء النكبة، ولما قضى ترك له رفاقاً

يحملون المشعل، وسيكملون المشوار حتى يتحقق الحلم الذي نذر أبو عدنان نفسه من أجله، تحرير فلسطين وإنسانها ■

شفيق الحوت

عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية

■ سيفتقد إخوته برحيله عنواناً من عناوين الإلتزام القومي الكبيرة في ساحة النضال العربي ■

سليم الحص

رئيس مجلس الوزراء الأسبق

■ إن الخسارة بفقدان الأخ المناضل أبو عدنان لا تعوض، فقد كان رحمة الله عليه رمزاً للنضال في سبيل قضية العرب جميعاً، ومثالاً للإلفة والمودة بين أهالي لبنان وفلسطين، فرحمة الله عليه، ونسأل الله أن يسكنه مع الشهداء الصديقين في علياء سمائه، وتعازينا لجميع الأخوة ■

رشيد الصلح

رئيس مجلس الوزراء اللبناني

■ عرفت الأخ المرحوم أبو عدنان مناضلاً شريفاً عنيداً في الحق متشبثاً بهذا الحق دون أية مساومة، وإذا كان قد قضى بنوبة قلبية، فإن قلبه كان يتسع لكل نضالات الأمة، ونضال الشعب الفلسطيني، لذلك اعتبره قضى شهيداً من أعز الشهداء ■

شفيق الوزان

رئيس وزراء لبنان الأسبق

■ تحية الفخر والإعتراز لنضالك يا أبا عدنان، يا رفيق الدرب وزميل النضال في الأزمات الصعبة، وستبقى الشعلة التي أضأناها سوياً، متوهجة إلى أن تنتصر راية التحرير على أرض فلسطين ■

محسن إبراهيم

الأمين العام لمنظمة العمل الشيوعي في لبنان

■ لا يمكن إلا أن ننحني إجلالاً وإكباراً أمام ذكرى هذا المناضل - المثال ■

جورج حاوي

الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني

■ أعطى كل حياته لقضايا الأمة العربية، فأضاف إضافة جمة إلى نضال كل الشرفاء، أضاف العمل الإنساني وعلاقته الإنسانية التي قلما تراها في غيره، بالإضافة إلى المبدئية والمناقبية، عرفته منذ زمن طويل وله فينا أعظم تقدير وإحترام ■

منير الصياد

الأمين العام للاتحاد الاشتراكي العربي

■ فقدنا في شخص الرفيق أبو عدنان، صديقاً مخلصاً ومناضلاً كبيراً، شكل على الدوام نموذج المناضل المخلص المتفاني المبدئي، خسرته شعب فلسطين وكل المناضلين الوطنيين واللبنانيين والعرب ■

نديم عبد الصمد

عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي اللبناني

■ فلسطين الثورية الجديدة التي ولدت بعد 1948، مقترنة بذهني بطليعة مميزة، وحَدها المرحوم عبد الكريم حمد قيس - أبو عدنان. وقضية أخرى أصبح فيها مع الأيام خبيراً، وهي العلاقات الفلسطينية - اللبنانية، وأذكر أنني كنت معه ومع أبي ماهر اليماني ومجموعة طليعية في زيارة للرئيس اللبناني فؤاد شهاب، وكانت أول محاولة لإقامة علاقات واضحة بين المخيمات الفلسطينية وفي لبنان والسلطة اللبنانية ■

منح الصلح

المفكر والسياسي اللبناني المعروف

■ قدر المناضلين بل أقصى طموحاتهم أن يسقطوا في ساحة النضال، وأن يسجلوا وقفات العز التي لا معنى للحياة بدونها، وأبو عدنان فارس من فرسان النضال من أجل فلسطين، ومن الذين مارسوا الشهادة عبر فعل العطاء اليومي، وهو إذ يغادرنا اليوم، يترك فراغاً، ستعرف الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين كيف ستملؤه ■

نصري الخوري

مكتب الرئاسة في الحزب السوري القومي الإجتماعي

■ لا غرابة إذا تعب قلبه بعد نصف قرن تقريباً من النضال المتواصل، ضد البغي والطغيان والإستعمار والتخلف والفساد، والانحراف والمتاجرة بالقيم والتتكبر للمباديء وتزوير الشعارات. أبو عدنان يرحل بجسده، ولكن نفسه تظل موجودة، هي موجودة بيننا بأفكاره وبنضاله وممارساته، وبما بذله من أجل قضيته ■

د. أنيس صايغ

رئيس تحرير «الموسوعة الفلسطينية»

■ غالباً ما تتجسد الصفة في الذهن، رجلاً، فلا تتمثلها إلا من خلاله، ولا تذكرها إلا وتستحضره. وهكذا فقد التصقت كلمة «مناضل» في ذهني بصورة رجلين: أبو ماهر أحمد اليماني، مدّ الله في عمره، وأبو عدنان عبد الكريم حمد قيس، الذي غادرنا قبل أيام إلى الدار الآخرة، من غير أن يغادر موقعه في «الشارع»، أي شارع وكل مكان من لبنان (...)، لا إدعاءات ولا تصريحات ولا صور إلا ضمن العشرات والمئات والآلاف وفي الصفوف الخلفية ... لا مواكب ولا سيارات ... ■

طلال سلمان

رئيس تحرير جريدة «السفير» اللبنانية

■ أبو عدنان خسارة كبيرة وموجعة على كل هذه الساحات، والمصاب جلل للبنانيين والفلسطينيين معاً، لأن عبد الكريم حمد قيس هو عقدة الوصل الموصولة دائماً في حكمته ودرايته ومعرفته ومتابعته للشؤون الوطيدة في العلاقات اللبنانية - الفلسطينية على كل مستوياتها، المتوجه إلى القصر الجمهوري أو رئاسة الحكومة أو وزارة الداخلية أو وزارة الشؤون الاجتماعية، ليتسنى له عرض قضية تخص الفلسطينيين في لبنان.

أبو عدنان لم يكن ملك جبهته الديمقراطية التي نقدم لها العزاء بوفاته، فالرجل لعب دوراً، حتى لفظ أنفاسه على الساحة اللبنانية، دوراً ميزه، عندما كان يقتحم على الرئيس الأمير فؤاد شهاب ساعات ليله، يبحث معه في أمر معتقل فلسطيني، أو شأن يتعلق بوضع يعانيه مخيم من المخيمات الفلسطينية في لبنان ■

موفق مدني
رئيس تحرير صحيفة «الديار»

■ موت أبي عدنان شهادة في ساحة نضال، هي أشرف وأنبى ما عرف تاريخنا الحديث ... كانت فلسطين تلمع على وجهه وفي كلمات، وفي نبض قلبه الذي توقف، ولكن فلسطين لم تتوقف، ولن تتوقف حجارة أطفالها ومسيرة شعبها ■

سماحة العلامة محمد حسن
الأمين

■ كثيرون لا يعرفون أبو عدنان، ولكن كل واحد في مخيمات لبنان يعرفه ويعرف بساطته وكبريائه وعطاءه منذ عهد الخيام الممزقة في الخمسينيات، وحتى عهد المخبرين والعسس والسيطرة وإستباحة الكرامات في بداية الستينيات، وإلى عهد القرنفل الحمراء، وزغاريد العودة في السبعينيات، وعهد إجتياحات العدو، وحروب الأشقاء في الثمانينيات. في فترة من الفترات، إنقسمت الساحة الفلسطينية على ناسها، وإحتكم الناس إلى أسلحتهم، وتحولت شوارع الفاكهاني إلى غابة كلاشنكوفات، ويومها كان أبو عدنان وزميله رفيق دربه أحمد اليماني - أبو ماهر، هما وحدهما اللذان يسيران بلا حراسات، وبلا بنادق، وبلا صهيل سيارات مسلحة، ولا صفق أبواب عندما يترجل الراكبون ■

صالح القلب
وزير الإعلام الأردني الأسبق

هشام أبو غوش.. **ترك بناءً وبنائين، عملوا معه وتعلموا منه** **1947-2014**

■ في حضرة الشهادة نلتقي هُنا، حيث الشهادة ملح الأرض؛ في حضرة الشهادة، نلتقي اليوم، لإحياء ذكرى قائد بارز من قادة العمل الوطني الفلسطيني؛ قائد مؤسس في القيادة التاريخية للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين. وإذا كان من طبيعة الأمور، في المناسبة التي تجمعنا اليوم، أن نتكلم عن هشام أبو غوش، لابد - ابتداءً - من استذناؤه؛ فمن بين الصفات التي إتسم بها فقيدنا الحبيب، ميزة التواضع ونكران الذات والتماهي مع الجماعة ونسب الإنجاز إليها؛ أما نحن، فمن جهتنا، لن نستأذنه هذه المرة، فهو لم يستأذنا بالإنصراف، لكننا نستميحه عذراً، إذا ما حاولنا - بكلمات قليلة - أن نفيه بعض الحق تعبيراً عن بعض الوفاء؛

فغائنا الكبير كان بليغاً باختصار الخطاب المعلن، ساطعاً بتجنب الأضواء، مؤمناً بأن العمل الجيد، إنما يعبر عن نفسه بنفسه، باعتباره ملكاً للمناضلات والمناضلين الساعين بدأب في رحاب القضية الوطنية.

■ ابن عمواس الرابضة على كتف القدس، التي فيها ولد وإلى جوارها عاد بعد رحلة عوليس فلسطين؛ ابن عمواس الذي أفنى زهرة العمر مكافحاً من أجل القدس بأقصاها وقيامتها، من أجل العودة وتقرير المصير،

من أجل الدولة واستعادة الوطن السليب؛
ها هو الآن يرقد بسلام، راضياً مرضياً، بعد أن ووري ثرى البيرة – رام الله، أسوة بشهيد فلسطين الأكبر ياسر عرفات، في النقطة الأقرب إلى عمواس اللطرون، عمواس القدس، عمواس فلسطين.

■ عرفته مخيمات الشتات، في الأردن، وفي سوريا بخاصة، منافحاً مثابراً عن قضايا الشعب والثورة في جميع المحطات الصعبة التي اجتازتها منظمة التحرير، ومدافعاً عنيداً عن وحدتها وبرامجها، كلما إقتضى الأمر.

وما أن لاحت أمامه فرصة العودة إلى فلسطين، حتى إندفع نحوها بالعاطفة المشبوبة والعقل الراجح، مطمئناً أن ما ساهم – من موقعه – ببنائه في الشتات الفلسطيني بات بأيدي قادرة مقتدرة؛ فهو كان على مفترق مقدمات إستحقاق «إنتفاضة الإستقلال» التي من «أقصى» القدس إندلعت شرارتها؛ ثم كان على موعد مع مواجهة الإحتلال الغاشم وحملته على الإنتفاضة بمسمى «السور الواقى»؛ وبعدها كان حاضراً على إستحقاق إعادة البناء بعد إنقشاع غبار المعركة تحضيراً للجولات المتوالية فصولاً، وآخرها عدوان «الجرف الصامد» - 2014 على القطاع، الذي شكلت إستباحة الضفة والقدس على مدى ثلاثة أسابيع المقدمة الدموية لعدوان إمتد لقرابة الشهرين.

■ لم تنقض عقود النضال المتواصل بالجهد اليومي المثابر، الدؤوب.. لم تمضِ دون أن تترك آثارها الغائرة على الجسد، وإن صقلت الوعي، فمناعة الجسد طالما تحركت باتجاه مخالف لقوة الإرادة ومنعتها؛ وكلما كان الخبيث يتمدد في الجسد، جسد فقيدنا الحبيب، كانت إرادته تنفوذ وعزيمته تشتد، في البذل والعطاء حتى الرمق الأخير، بهدوء وصمت يعكسان سمو الروح وعمق الإيمان بقضية الشعب والوطن.

■ هكذا رحل عنا هشام أبو غوش.. لم يخلف وصية، ولم يوصِ أحداً أو بأحد، بل ترك بناءً وبنائين عملوا معه وتعلموا منه؛

هؤلاء سيغذون الخطى بنفس التصميم، في ظرف سياسي بالغ التعقيد يطرح جملة من التحديات؛ تحديات يتوجب على الحركة الفلسطينية رفعها دونما تردد:

● أول هذه التحديات يتمثل بكيفية التقدم نحو إستعادة الوحدة الداخلية بعد أن تبدت النتائج الكارثية للإنقسام في أكثر من محطة فاصلة، آخرها- 2014، عدوان «الجرف الصامد» على القطاع.

أثناء هذا العدوان، الذي لم يستثنِ الضفة والقدس وإن تركز على القطاع، ظهرت المفارقة الصارخة بين الوحدة في الميدان حيث تدور المواجهة، والفرقة في القرار حيث تُرسم السياسة.

حالة الإنقسام هذه لم تُفلح خطوات على غرار تشكيل الوفد الموحد للمفاوضات، وقبلها حكومة الوفاق الائتلافية المنبثقة عن إتفاق الشاطيء، بعد تنحي حكومة حماس.. لم تفلح في وضع الحالة الفلسطينية على سكة إستعادة الوحدة، لأن هذه الخطوات – على إيجابيتها – أنتت جزئية ومحدودة، وحاذرت المساس بالبنية الحامية لمركز القرار السياسي على مستوى القطبية الثنائية المتناوبة.

إن ما نواجهه حالياً يقتضي المعالجة لدعوة «الإطار القيادي المؤقت والموحد» الذي يضم جميع القوى ممثلة برأس الهرم لكل منها، إلى إجتماع فوري لبحث الأوضاع، باعتباره – أي الإطار – المعني بتقديم الإجابات الوافية على السؤال الملح بشقيه: ماذا بعد العدوان على غزة؟ وماذا بعد فشل العملية السياسية بالرعاية الأمريكية المنفردة؟

● **ثاني هذه التحديات** يتمثل بالقدرة على تشكيل الأدوات الرئيسية الفاعلة سياسياً وإدارياً على طريق إستعادة الوحدة الداخلية، وحل المشكلات الداهمة من خلال ثلاث خطوات متلازمة:

- تشكيل حكومة وحدة وطنية فلسطينية؛
- تشكيل قيادة وطنية موحدة في قطاع غزة تأخذ على عاتقها، ومن موقعها، إنجاح خطة إسقاط الحصار وإعادة إعمار ما دمره العدوان؛
- تشكيل خلية أزمة في إطار اللجنة التنفيذية لمتابعة أوضاع شعبنا في سوريا لجهة توفير الحد الأدنى من متطلبات الصمود وإحتواء نزيف الهجرة التي باتت تنذر بالتحول إلى ظاهرة إجتماعية تهدد تماسك البنية والدور الوطني.

● **أما التحدي الثالث،** وعلى خلفية إنسداد سُبل الحل السياسي بالرعاية المنفردة لواشنطن، فيتمثل باتباع إستراتيجية تبني على عضوية فلسطين المراقبة في الأمم المتحدة من أجل إكتساب عضوية دولة فلسطين في المؤسسات والإتفاقيات الدولية، وبخاصة محكمة الجنايات الدولية، وبما يفتح الأفق لهجوم سياسي دبلوماسي يحقق المزيد من خطوات نزع الشرعية عن الإحتلال وعزل الكيان.

■ ■ ■

■ وبمغزى هذه التحديات وروحيتها، والإلتزام بما ينجم عنها من مهام، نعاهد شعبنا على مواصلة الطريق حتى العودة والدولة، وبالقدس عاصمة.. هذا عهدنا لأسرانا الذين نجلهم ونناضل حفاظاً على مكانتهم وحقوقهم إلى أن يعانقوا فضاء الحرية؛ هذا عهدنا لجرحانا، ولشهادتنا الذين سقطوا في العدوان الأخير؛ هذا وعدنا للقائد هشام أبو غوش الذي إرتقى شهيداً قبل أن يرى القدس محررة، وعلم فلسطين يرفرف تحت سماء عمواس اللطرون، عمواس القدس، عمواس فلسطين. نم قرير العين هانئاً في مثواك الأخير، أيها الرفيق والأخ والصديق، فمن غيرك تنطبق عليه مقولة: رُبَّ أَخٍ لم تلده أمك ■

فهد سليمان

23/10/2014

أبو خلدون – عبد الغني هَلّو ..

عاش الثورة بمختلف محطاتها

1947-2017

■ إذ نفق أمام ذكرى رحيل قائد مؤسس من قادة الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين؛ عبد الغني هلول- أبو خلدون، عضو مكتبها السياسي، تعود بنا الذاكرة إلى عقود مضت، بمحطات فاصلة في مسيرة نضالية ممتدة، تقيض عن نصف قرن من النضال المثابر، بروح التفاؤل الثوري المتأصل، بإرادة لا تلين، وبقناعة راسخة بحتمية إنتصار القضية الوطنية، مهما تعاضمت الصعوبات التي تعترض طريقها.

ولد شهيدنا الكبير في يافا 1947، عروس الساحل وعاصمة فلسطين الثقافية بدون منازع، التي رأت النور في الألف الرابع قبل الميلاد، حيث هَجَرَت العصابات الصهيونية أبناء المدينة إثر النكبة عام 1948، فتوجَّهت عائلته إلى دمشق، فيها نشأ وتعلم في مدارسها وكلياتها، وانخرط في وقت مبكر، وهو على مقاعد الدراسة في النضال الوطني والقومي من أجل قضية فلسطين وحق اللاجئين في العودة إلى الديار والممتلكات.

■ هو من جيل إنخرط في العمل الوطني في مرحلة تقدم المشروع النهضوي العربي، لاستكمال مهام التحرر الوطني، في مرحلة المد القومي، تحت مظلة الوحدة العربية، وتحرير فلسطين، والإنفكاك من قيود التبعية والتخلف، لصالح التنمية الإقتصادية والتقدم الإجتماعي بأفق إشتراكي.

كما هو من جيل واكب الحركة الوطنية الفلسطينية منذ انطلاقتها وعلى امتداد عمرها المعاصر، بمختلف مراحلها، تقدماً وتراجعاً، وبمختلف ميادين عملها، في العمل الفدائي، والحركة الأسيرة، وفي الدفاع عن الثورة وسلاحها، في العمل السياسي والتنظيمي وال جماهيري والعسكري، قبل أن يترجل ويترك الساحة، في رحيل عزّ على أبناء الجبهة الديمقراطية ومناصريها، وعلى أوساط واسعة في الحركة الوطنية، ويسلم الراية إلى من خَلَفَهُ.

■ ولعلنا نفي شهيدنا الكبير بعضاً من حقه، بتجديد التأكيد على مواصلة المسيرة، التي إفتتحناها معاً، وتدرجنا في دروبها الوعرة حتى ترتفع راية فلسطين فوق أسوار القدس، المدينة السليبية راهناً، والعاصمة المحررة حتماً لدولتنا المستقلة؛ وفي هذا السياق نؤكد إخلاصنا للرسالة التي وجهها، قبل رحيله، أن حان الوقت، وأن الألوان، لكي تنتقل دفة القيادة في الحركة الفلسطينية بعمومها، إلى الأجيال الصاعدة، التي رأت النور بعد اندلاع الثورة المعاصرة.

■ في سيرته النضالية المديدة تقلد فقيدنا مهام عديدة، أبرزت كفاءته القيادية، فقد انطلق من المواقع القتالية في نسق القواعد العسكرية، ليحتل دوره القيادي في صفوف الحركة الجماهيرية، حيث انتمى - وافتداً من الحركة القومية - للجبهة الديمقراطية منذ تأسيسها في شباط/ فبراير 1969، وكان واحداً من مؤسسيها، وانتقل إلى الأردن للانضمام إلى القطاع العسكري، وشارك في العديد من العمليات ضد الاحتلال الإسرائيلي، ثم عاد إلى سوريا، فانخرط في العمل النضالي إلى جانب أبناء المخيمات الفلسطينية، ليتولى بعد ذلك مسؤولياته القيادية في مخيمات لبنان، مقيماً في مخيم الرشيدية الساحلي، المخيم الأقرب إلى فلسطين في الجنوب اللبناني الأغر، جنوب المقاومة، قبل أن ينتقل بمهمة التمثيل الرسمي للجبهة الديمقراطية في العاصمة العراقية بغداد، وبعدها ممثلاً للجبهة في العاصمة الليبية طرابلس.

عرفته الأحزاب اليسارية والتقدمية والديمقراطية العربية وفي العالم، حاضراً في محافلها ومؤتمراتها ممثلاً للجبهة الديمقراطية ورئيساً لوفودها وناطقاً رسمياً باسمها.. وبعدها تولى قيادة منظمات الجبهة الديمقراطية في الفروع الخارجية، لينتقل بعد ذلك لقيادة إقليم الجبهة في مخيمات سوريا.

■ إلى جانب الدفاع عن الحقوق الوطنية، وعن م.ت.ف، ممثلاً شرعياً ووحيداً لشعبنا، وعن كيانيته السياسية، خاض أبو خلدون النضال في الميادين كافة، ولعل أهمها لا بل في مقدمها النضال من أجل بناء أجيال من المناضلين، في صفوف الحركة الشعبية وفي المخيمات، وعلى يديه تربت أجيال من المناضلين الفلسطينيين في أغوار الأردن، وفي مخيمات سوريا ولبنان، وفي كل مجال، إضطلع فيه بمسؤولية، بغض النظر عن طبيعتها، وعديد الذين عملوا بقيادته أصبحوا الآن قادة في الصفوف الأمامية، يحملون عنه أطيّب

الذكريات، ذكريات الكفاح المشترك، والمعاناة معاً، بما في ذلك معاناة الجوع، في بعض الأيام، ومعاناة درء مخاطر الإنقسام دفاعاً عن مصالح شعبنا وقضيته.

■ وفي مثابرته على الالتزام بالروح النضالية، خاض أبو خلدون في صعوبات الكفاح بلا تردد، وجابه المخاطر وتخطى العقبات، متطعاً إلى المزيد من العطاء، مسلح بيقين إنتصار الثورة والمقاومة وإندحار الإحتلال، وتحرير الأرض، وقيام الدولة الفلسطينية. وكان يراوده، حلم العودة إلى الديار والممتلكات وانتهاء مأساة التشرد والجوء، وتصويب المسار التاريخي، ورفع الظلم عن كاهل شعبه، رائزه في هذا، برنامج الجبهة الديمقراطية، وفكرها السياسي، وتجاربها الغنية، ونضالات أعضائها، وفي القلب من كل هذا، تضحيات شعبنا، وأصالته النضالية، وتمسكه بحقوقه الوطنية المشروعة غير القابلة للتصرف.

■ كان وحدوياً، بقدر ما كان إبناً وفيماً ومخلصاً لجبهته. كان يسارياً وطنياً، فلسطينياً، بقدر ما كان إبناً للعروبة ولحركة النضال الأممية ضد الإمبريالية، وإلى جانب الشعوب المكافحة من أجل حريتها وإستقلالها.

وإذ نستذكر هذه القامة بكل شوق، ونستعيد تاريخ هذا القائد المتقشف، من المهم، لا بل من الضروري أن نوكد، أن البنيان الذي أمضى العمر مساهماً في تشييده، سيبقى صامداً، وسيعلو شامخاً يوماً تلو الآخر، وأن الموقع الذي شَعَرَ بغيابه، تقدم إلى الأمام من يشغله مِمَّنْ تدرجوا تدرجوا بقيادته، في مدرسة الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ■

فهد سليمان

14/12/2019

خالد عبد الرحيم ... اللواء الذي تكتّم على رتبته 1945 - 2018

■ ليس سهلاً، حتى على أصدقائه، أن يكتبوا عن خالد عبد الرحيم، وأن يسبروا أغوار شخصيته، وأن يرسموا بدقة كيف قطع مسيرته، وكيف عبّر في محطاتها المختلفة عن آرائه، ومواقفه، بما هي تعبير، في الوقت نفسه، عن شخصيته وطبيعة تفكيره، ورؤيته للحياة، ولللاقات الإنسانية، ومَهْد في الوقت نفسه، للنضال، إحترافاً أم تطوعاً.

ويمكن القول إن خالد عبد الرحيم يشكل شخصية، بقدر ما تعتقد أنك إقتربت منها، بقدر ما تشعر في الوقت نفسه، أنك ما زلت على مسافة منها لتدرك مكوناتها.

خالد عبد الرحيم، كما هو معروف، من أوائل الفدائيين في الضفة الغربية، تحت الإحتلال الإسرائيلي، اعتقل عام 1968، إثر إشتباك ومطاردة مع جيش الاحتلال، وقضى في الأسر 12 عاماً، إستعاد بعدها حريته في عملية تبادل الأسرى في العام 1979.

■ معظم الأسرى، إن لم يكونوا كلهم، ممن يمضون فترة طويلة في الأسر، يخرجون وهم يجيدون بشكل أو بآخر اللغة العبرية، إما من خلال إحتكاكهم بالسجان أو حتى من خلال دراسة اللغة في السجن، بإعتبارها حاجة نضالية.

خالد عبد الرحيم، قضى 12 عاماً في الأسر، ولم يلفظ - لا نقول يتعلم - عبارة عبرية واحدة مع السجان، كان حريصاً على مقاطعة هذه اللغة. طبعاً لقناعته بأن مقاطعة اللغة العبرية، هي شكل من أشكال المواجهة والنضال، وتحدي السجان.

لذلك، يلاحظ أن أقرانه الذين عايشوه في الأسر، واستعادوا حريتهم، إما معه أو في دفعات أخرى، سَخَرُوا إجادتهم للغة العبرية في أعمال صحفية، فيما ركل عبد الرحيم - كما كنا ندعوه - هذه اللغة، وتعالى عليها بقناعته أنها لغة ميتة، ذات مضمون إستعماري عنصري، لا تستحق أن يبذل المرء الحد الأدنى من الجهد ليتعلمها، إلا أن ذلك لم يحل دون أن يتابع عبد الرحيم الصحافة العبرية مترجمة إلى العربية، وأن يدرك خارطة الصحافة الإسرائيلية، وإتجاهات كل واحدة منها، أو يدرك خارطة الكتاب والصحفيين، واتجاهاتهم الفكرية والسياسية من باب «إعرف عدوك».

■ حين إستعاد عبد الرحيم حريته، أبعد مع عدد من رفاقه المحررين إلى لبنان، قاموا بجولة في المخيمات، حيث استقبلوا بتظاهرات شعبية صاخبة، في وقت كانت فيه القضية الوطنية تعيش أجواء شديدة السخونة، إنعكست حماسة في مخيمات لبنان، وكانت زيارات المحررين من أسرى الجبهة الديمقراطية عاملاً آخر من عوامل تسخين الأجواء.

ولعل إحدى المحطات التي شهد فيها عبد الرحيم ورفاقه المحررون، إستقبالاً ساخناً، تفجرت خلاله عواطف أبناء المخيم فرحاً وإبتهاجاً، كانت زيارة مخيم عين الحلوة نموذجاً، حين دخلوا المخيم في سيارة عسكرية مكشوفة، أغلق عليها المتظاهرون والمرحبون الطريق، وأصرّوا على مصافحة القادمين من أرض الوطن إلى الشتات، بعد أن قضوا في زنازين الإحتلال الإسرائيلي عشرات السنوات، ثم أقيم للقادمين عرض عسكري شاركت فيه فصائل المقاومة كافة، بعدها حفل خطابي، تناوب على الحديث فيه متحدثون هنا أو الجبهة الديمقراطية والمحررين باستعادتهم لحريتهم، مرحبين بهم إلى مواقعهم النضالية يستأنفون دورهم في ظروف وأوضاع جديدة.

بعدها تحول المهرجان إلى حفل غنائي أنشدت فيه الأناشيد الوطنية، وأطرب فيه الجميع «الزجال»، والشاعر الفلسطيني المشهور الأستاذ كعوش، قدم قصائده الزجلية هدية لكل من الأبطال المحررين، ولعل اسم «خالد عبد الرحيم» أسعف قريحة الزجال الشاعر كعوش، فأفاض في إبداعه ما أثار عاصفة من الترحيب بالأسير المحرر القادم من أرض الوطن.

■ وفي الحديث عن شخصية عبد الرحيم، يمكن القول إن توليه مهامه في القوات المسلحة الثورية، الجناح العسكري للجبهة الديمقراطية، بعد تحضير أكاديمي على أعلى المستويات، إنسجم مع شخصيته وطموحه الشخصي، كذلك إنسجمت هذه المهام مع بنيته الشخصية، بقامته الفارعة، التي اشتهر بها بين رفاقه وأقرانه، ومع ذلك يمكن القول إن خالد عبد الرحيم كان يتسم بالخفر، وأخذ على نفسه، لأسباب ولقناعات خاصة به، أن لا يتحدث في مهرجان أو حفل سياسي، على غرار المهرجانات والاحتفالات الشعبية التي تقام في المناسبات الوطنية، لكنه كان في الوقت نفسه، بارعاً في الحديث السياسي والفكري أمام الأطر والتجمعات الحزبية، يبدأ حديثه متمهلاً، ثم تنطلق عنده قاطرة الكلام، ويصاب أحياناً ببعض الحماسة التي تعبر عن عمق قناعاته بما يقول، معززاً ثقة المستمعين إليه وبه.

■ ومن موقعه في قيادة قوات الجبهة الديمقراطية، كان يواظب على زيارة معسكرات التدريب، والإلتقاء بالمتطوعين ويحدثهم في سلسلة محاضرات، عن صفات المقاتل الثوري، وتعريف «القوات» والجبهة الديمقراطية والقضية الوطنية، أي أنه كان حريصاً على تهيئة المقاتل تهيئةً وطنية ونفسية وجسدية، قبل أن يلتحق بمواقع القتال في المخيمات أو خارجها. كما كان عبد الرحيم بارعاً في إعطاء التوجيهات للقادة والمقاتلين، في عز الأزمات السياسية والعسكرية، إذ قاد قوات الجبهة الديمقراطية على محاور البقاع، وجبل لبنان، ضد قوات الغزو الإسرائيلي في العام 1982، وقدم في إطار خطة مدروسة، دعماً لببروت المحاصرة، معتمداً على سلاح المدفعية والراجمات. كما كانت له تجربته القتالية الناجحة، إبان الحرب على المخيمات، حين نجح في تسويرها بحزام ناري شكل عنها دفاعاً قوياً عنها ضد أية محاولات لإختراق الصفوف.

■ في الوقت نفسه، كان خالد عبد الرحيم مثقفاً، فقد اجتاز دورة قادة ألوية، في عاصمة عربية شقيقة، وتخرج منها برتبة لواء، بشهادة رسمية، لكنه في الوقت نفسه، لأسباب كان رفاقه يتفهمونها، يرفض تعريف نفسه باعتباره اللواء خالد، بل كان يكتفي بالرفيق خالد، كما كان منكباً على المطالعة، يبدي اهتماماً بالتاريخ والفلسفة والرواية، متابِعاً دقيقاً للصحافة خاصة الأجنبية، للإطلاع عما تكتبه وكيف تقدم القضية الوطنية إلى الرأي العام.

أما حين كان يجتمع إلى قيادته العسكرية، فكان يمارس دور الموجه والمسؤول إلى جانب دوره القيادي في فرض الرقابة، عبر التقارير، وفي جولات ميدانية في مواقع المقاتلين، وكان متعاوناً إلى أقصى حدود التعاون مع مساعديه.

■ في أواخر أيامه، أُصيب بما إستوجب دخوله إلى المستشفى، حيث قضى وقتاً عصيباً، رفض خلال إقامته أن يستقبل زواره، مكتفياً بالحديث الهاتفي، ما يعكس طبيعة شخصيته ومدى إعترازه بنفسه، وإصراره على أن لا يتذكره الآخرون، إلا وهو في ذروة نشاطه. قائد وطني، خاض المعارك وأشرف على بناء أجيال من المناضلين ... اتسم بالصراحة والوضوح ... له كل الإحترام والتقدير، وتحية له في مثواه الأخير ■

معتمد حمادة
كانون الأول/ ديسمبر 2018

خالد نزال ... ما زال شبحه يحوم في أروقة الموساد 1948-1986

■ من مزايا القائد أن يعرف جيداً طريقه إلى الهدف، وكان خالد نزال يعرف جيداً طريقه إلى فلسطين. نزع اللافتات العبرية التي أرادت تزوير الحاضر، وزرع مكانها لافتات فلسطينية عنوانها «هنا فلسطين»، محارفات أرض الميعاد، وسطر بدلاً منها الحقائق الفلسطينية بالدم، حين لم ينفع الحبر. بنى جبلاً من الفدائيين الذين أطلوا برؤوسهم شامخة: «قوات الداخل» مرة، وقوات «النجم الأحمر» مرة أخرى، وكتائب المقاومة الوطنية الفلسطينية – قوات الشهيد عمر القاسم مرة ثالثة. وما نشهده اليوم من بنادق تطل بفوهات مكللة بالعلم الفلسطيني، هي واحدة من تلك البذور التي نثرها خالد نزال ورواها بدمه، فأينعت تزيين الطريق الذي كان قد شقه ورسم معالمه خالد نزال.

■ لماذا أصرت إسرائيل على ارتكاب جريمة إغتيال خالد نزال؟ سؤال يمكن الإجابة عليه ببساطة متناهية:

- لأنه هو من هندس وأشرف على تنفيذ عملية «يوم الأرض» في العام 1984، في شارع ديزنكوف في قلب تل أبيب، ويومها كتبت صحيفة «السفير» اللبنانية تقول: «غادر الفدائيون لبنان إلى تل أبيب».

- وهو الذي قرأ جيداً إجراءات الاحتلال والغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982، وجعل منه وسيلة، نجح خلالها في «شحن» دفعات من الأسلحة، كانت لها فعاليتها في الإنتفاضة الوطنية الكبرى التي انفجرت بعد سنوات قليلة.

- وهو الذي هندس عملية الخليل، حين خرج من البلدة القديمة عدد من المقاتلين الأبطال، قضوا على دورية إسرائيلية كانت تجوب المنطقة، وما زالت أسرار هذه العملية دفينة في الذاكرة وفي الملفات المخبأة في أرشيف «قوات الداخل».

- وهو الذي هندس عملية تفجير ثلاجة في شارع محنا يهودا في قلب القدس، على مقربة من نقطة تجمع لجنود العدو، عقاباً على ما ارتكبته قوات الاحتلال من جرائم في القدس والضفة وقطاع غزة.

- وهو الذي هندس ونجح في أسر أحد جنود الاحتلال والغزو الإسرائيلي في مدينة صيدا في الجنوب، ونقله إلى المكان الآمن، إلى حين أجرت الجبهة التبادل مع جنته، وقد توفي في الأسر إثر غارة إسرائيلية شنتها إسرائيل على مكان إحتجازه.

• وهو الذي صنع جيلاً من الأبطال المقاتلين الفدائيين، ممن تدربوا على يديه في أساليب القتال والمقاومة ضد الاحتلال، وصناعة أدوات المقاومة الشعبية من أبسط المكوّنات، سيراً على خطى من سبقنا من القوى في حروبها الشعبية ضد الاستعمار.

• وهو الذي أفنى حياته في كتابة الرسائل ورسم الخطط، وتزويد خلايا الأرض المحتلة بكراريس التوعية الأمنية، وامتلاك نظريات «الإنتماء السري والنضال العلني».

■ لذلك لا غرابة أن تجند قوات الاحتلال كفاءاتها الأمنية في مطاردة خالد نزال. قبل جريمة اغتياله، اجتمعت في تل أبيب، مجموعة من كبار ضباط الموساد، على رأسهم رئيس الجهاز، والشاباك، وأمان، وتقرر في ذلك الاجتماع إغتيال خالد نزال. عندما قرر السفر إلى أثينا، للقاء بعض محطاته النضالية، تلقى نصائح بعدم السفر، فأثينا وكر لعملاء إسرائيل، لكن حرصه على إنجاز المهمة وإدراكه لأهميتها القصوى، والانتفاضة الوطنية في ذروتها، أصر على الذهاب.. وهناك نجح عملاء الموساد في ارتكاب جريمتهم. ودعناه في مخيم اليرموك، كما لم يودع قائد من قبل، أصبح اسمه واسم عمر القاسم، ومراد/ بهيج المجذوب، القادة الثلاثة أيقونة من أيقونات الثورة والشعب والوطن. رحل عنا، لكن إسرائيل ما زال ترعبها ذكراه، إذ ما زال شبحه يحوم مؤرقاً العدو في أروقة الموساد ■

معتصم حمادة

19/12/2022

سامي أبو غوش وزوجته مها..

المثقف المشتبك

1945 و 1952 - 1981

■ إستمعنا واجمين، وكنا مجموعة من المعتقلين السياسيين الشباب في سجن المحطة، من خلال جهاز راديو مهرب، للخبر الذي بثته إذاعة مونت كارلو قبل أربعين عاماً بالتمام، أي في الأول من تشرين الأول/أكتوبر

1981، عن استشهاد سامي أبو غوش - الملقب بالحاج سامي - وزوجته مها أبو غوش، خلال انفجار سيارتهما في منطقة الفاكهاني ببيروت.

شيء ما وقع في داخلي كان يقول: هذه نتيجة طبيعية لمن اختار هذا الدرب، وأصوات أخرى تقول: لا... لا شك أنهم أخطأوا في التشخيص، فهذا موت مبكر جداً، وظالم إلى أبعد الحدود. لم ألتق به في حياتي قط، العشرات سألوني عنه وعن علاقات القربى التي تجمعني به، وكان السؤال منطقياً وطبيعياً في ضوء الشبه في الملامح كما يقول العارفون، وانتمائي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، الفصيل الذي كان هو أحد قادته ومؤسسيه واستشهد حين كان سكرتيراً للجنة المركزية، ليتبين لي لاحقاً أننا أقارب، لكن النكبة ثم النكسة، والشتات، والهجرات، والمعارك والحروب، وتدمير عمواس وعموم قرى اللطرون وتهجير أهلها، والتخفي، والإعتقالات، والعمل السري كلها عوامل تجعل من التواصل الطبيعي بين العائلات الفلسطينية والأقارب والمعارف أمراً عسيراً.

■ أحسست بالفجعة والخسارة الشخصية الفادحة حين إرتقى إلى أعلى عليين، فالأسئلة عنه زادتني شوقاً لمعرفته، وكنت أظن قبل استشهاده أن لقاءنا حتمي ولكنه مؤجل، رحيله المؤلم لم يبلغ الأسئلة، بل عززها وترك للزمن والمعارف والأصدقاء وخاصة رفاق دربه ومجايليه مثل هشام أبو غوش، وسالم خلة، وتيسير الزبري، وجودت السويركي ومحمود خليفة أن يجيبوا عليها، ويكملوا رسم الشخصية التي تشفّ عنها صورته شبه الوحيدة التي انتشرت: طيف إبتسامة خفيفة على طرف شفتيه، نظرات نافذة، ووسامة لا تخفي وبعض الغموض(!).

■ هي صورة المثقف الثوري الذي يترك كل شيء من متاع الحياة ويلتحق بالنضال، وصورة «المحترف الثوري»، كما وصفها لبنين لحزب البلاشفة، فلا ينال إلا ما هو ضروري للقيام بمهامه. لم تكن الثورة قد غرقت أو أغرقت بعد بطوفان المال والتفرغات والتجبيش والإمتيازات والمكاتب والمرافقين، بل كانت مهام الثوار والمناضلين سواء كانوا قادة أو عساكر، تمثل إمتداداً لنفس حياة السجون والأحراش وقواعد التدريب، ليس «كاكي» أو شبه عسكري متشابه، ونمط حياة مزدحم بالمهام والمواعيد والمتابعات. كان النموذج السائد هو للمثقف الذي يغنيه إتساع عالمه الداخلي وسعة أفقه عن الحاجة لإحاطة نفسه بمظاهر الأبهة والبريستيج القيادي فارغ المحتوى.

■ لماذا أذكر ذلك؟ لأن كل من عرفوه كانوا يقارنون بين مسؤولياته الإدارية والمالية الجسيمة، فائقة الأهمية والحساسية، التي كان يتولاها، وبين مستوى حياته المتقشف والبسيط إلى أبعد الحدود. وبين ثقافة وذكاء صاحبنا الشهيد الحاج سامي وبين سلاسة وتلقائية وعفوية سلوكه الإنساني وتواضعه، وحيائه مع رفاقه والمقربين منه النابع من أخلاقه الثورية الراقية، وهو الذي كان بشهادة الجميع شديداً وقاسياً تجاه أعداء الشعب والثورة والإنسانية.

الشهيد الحاج سامي هو ابن الشهيد محمد ذياب أبو غوش، الذي استشهد في العام 1948. لم يكن سامي الصغير قد بلغ الثالثة من عمره عند استشهاد والده دفاعاً عن أرضه. وهو زوج ورفيق درب الشهيدة مها حسن أبو غوش، رفيقته في الحياة والنضال والشهادة، ولم نكن نعرف عنها الكثير، لكن صوراً نادرة إنتشرت لها مؤخراً تكشف كم كانت مها منخرطة في النضال الشبابي والنسوي سواء في مرحلة الثورة في الأردن، أو في لبنان.

وقد رحل بهذا الشكل التراجيدي بعد أن خَلَّفَ لارا، التي كانت بالكاد في الثامنة من عمرها، لكنهما تركا أيضاً إرثاً غنياً في مضامينه رغم قصره الزمني، ولعل أهمية هذا الإرث تزداد الآن أكثر من أي وقت مضى ونحن نرى إنقلاب المعايير وتبدل الأزمان واختلاط الزيف بالفهولة.

■ ثورتنا الفلسطينية وحركتنا الوطنية لم تكن كما آلت إليه الأحوال الآن حيث يختلط تجار السياسة بالمناضلين، والمتقفون الثوريون بالأدعياء، فقد كانت ثورتنا عظيمة ومثلت رداً عظيماً على النكبة، وشكلت ظاهرة يغلب عليه النبل والإستقامة والطهر الثوري، وغالبا ما تكون الأخلاق واختيارات الضمير،

والانحياز إلى ما هو حق وعدل، هي ما يدفع الإنسان الثوري لاختيار طريقه بالاندغام بمصالح الشعب، وإدراك أن الخلاص الفردي يأتي من خلال الخلاص الجماعي من الظلم والإضطهاد، أما ما علق بالثورة من فساد فيعود لعوامل عديدة خارجية وداخلية، أهمها غياب الرقابة والمحاسبة والمساءلة.

■ في الذكرى السنوية الأربعين لاستشهاد الحاج سامي وزوجته ورفيقة دربه مها أبو غوش، ننحني إجلالاً لذكراهما العطرة، وللقيم السامية والنبيلة والطاهرة التي مثلاها في حياتهما وفي إستشهادها وفي ذكراهما، ولابنتهما العزيزة لارا الفخر والاعتزاز على مدى الزمان، وللأهل والرفاق وكل من يذكر شهداءنا خالص المحبة ■

نهاد أبو غوش

1/10/2021

سامي أبو غوش ..

وقادمة خيولك ..

1945-1981

.. وقادمة خيولك في أغاني

الذاهبين الى الكائن، والنداءات
التي تأتي من الطرقات، والأحزان
تسند ظهرها للشمس،
وأنت ظلال أغنية تصاعد
وهجها عشرين عاما، والندى
يغفو على كتفيك
فطوبى للندى
وطوبى للتي نشرت مناديل
الوداع ولملمت أحزانها
وتعلمت لغة البدايات التي لا تنتهي
لعاشقة تصافح يومها الآتي
ويضحك حزنها أبداً.

■■■

.. وقادمة خيولك كي تروض شهوة

الخيول الهجينة

وزينتك البنفسج والبنادق
فلا تبحث عن الكلمات
ستأتيك النوافذ وحدها
وأصوات المغنين،
واحتفالات البراعم والشوارع
والمواكب

والنقابات الصديقة
والصغار الناهضين
فلا تبحث عن الكلمات
ستأتيك السنايل وحدها
والياسمين.

■ ■ ■

.. وقادمة خيولك في المساء
وفي اندفاعات الخطى،
والموت لا يأتيك من
خلف الحقيقة والمطر

■ ■ ■

.. وقادمة خيولك في احتجاجات
البنادق ضد هذا الليل، أو ضد
احتمالات التراجع عن عصافير الجليل
وعن ملامحها
فكل القادمين من القذائف
والرصاص يغادرون مواقع الحزن
البليد وتنتمي خطواتهم العشب والطرفات
وكل الذاهبين إلى الخليل سيدخلون
دمي لكي بيروت تأخذ شكل وجهي المنتظر
فبيروت العشيقة والقتيلة
وبيروت الحرائق والخميلة
وبيروت المطر
وبيروت التي إن جاءها وجع المخاض
تلونت بالزعر البلدي
وبيروت التي يتناقل العشاق موعدها
لتذهب في جنازتهم
ليبقى وجهها الطيب
ويبقى وجهها الدموي.

■ ■ ■

.. وقادمة خيولك في الصباح لكي ترى عمان
ولارا في إندفاعتها تحاول أن ترى حيفا
وتسأل عن تفاصيل اللقاء
وعن وصيتك الأخيرة
و للعشاق صوت ليس يسمعه سوى العشاق
وللعشاق ذاكرة الفراشات الصغيرة ■

عبد الهادي الشروف
7/10/1981

**طلال أبو ظريفة .. لسنا هوية تبحث عن مكان،
بل مناضلون من أجل حرية الوطن
1960-2024**

■ عندما ترغب في الكتابة عن رفيق لك، عايشته لفترة زمنية طويلة في الإطارات الحزبية، وتعرفت عليه كإنسان، من لحم ودم، يفرح ويحزن، كباقي البشر، تصاب بالإرباك، وأنت تبحث عن الكلمات التي تعتقد أنها تفي صاحبك حقه، دون أن تتجاهل الآخرين.

تتراكم أمامك، المشاهد والصور، تستدعيها في محاولة لرسم الصورة الأخيرة لشهيد رحل في غير مواعده، وأنت تتخيله وقد استهدفته قذيفة من طائرة، ما اعتادت إلا أن تستهدف الأحياء والمنازل المدنية، فتحول المكان إلى ركام، والأجساد إلى أشلاء متناثرة في أرجاء المكان، تسبح في دماء هُدرت بوحشية، لا لسبب سوى لأن صاحبها فلسطيني، رفض إلا أن يكون فلسطينياً، وألا يغيب عن أرض فلسطين، فوقها ولد، وعلى ترابها مشى، ومن مياها ارتوى، غادرها لفترات قصيرة، تلبية لنداء العلم والمعرفة، ثم عاد إليها بشوقه العارم، فتفتح له ذراعيها، مناضلاً، مسخراً جهده وعقله وكل مشاعره في خدمة أقربائه وجيرانه، وأبناء حارته، مدركاً بإحساسه العميق أن لا قيمة للفلسطيني إلا إذا قدم لفلسطين ما يملك، وبذل حياته في سبيلها.

■ ولد الشهيد طلال أبو ظريفة، كأبي مولود فلسطيني في قطاع غزة، يحمل في يده بطاقة تُعرّف بالهوية وتُجهل الجنسية، ومثل الكثيرين، نشأ طلال ونما، وانخرط في اتحاد الشباب الديمقراطي الفلسطيني - «أشد»، ما أسهم في تكوين شخصيته الوطنية وبلورته، فنظر إلى فلسطين نظرة جديدة، ليس باعتبارها مجرد نكبة رافقها تهجير وتبديد، ومؤامرة لطمس الهوية، بل هي وطن، وشعب، وقضية، وهياكل وطنية، جمعت تحت راية فلسطين الملايين، وابتدأ في تلقي الفكر الجديد، الذي أبدع اليسار الفلسطيني الجديد في بلورته مشروعاً نضالياً، أفاض على الجميع، وصار هو المشروع الوطني بعناصره، وهو العنوان بتفاصيله.

■ **النقطة الأولى في حياته**، كانت عندما سافر إلى الجزائر، بمنحة جامعية أمّنها إتحاد الشباب - «أشد»؛ وللمرة الأولى في حياته، خرج من خلف أسوار قطاع غزة، إلى العالم الفسيح: القاهرة، ثم الجزائر، حيث عاش أوضاعاً مختلفة، فقد تعرّف أكثر على فلسطين، حين التقى أقرانه الجامعيين، أبناء جلدته، القادمين من أقطار اللجوء الأخرى: سوريا، العراق، الأردن، كما تعرف إلى أبناء الضفة الغربية، الشريك في معاناة الاحتلال.

كما تعرف إلى الشعب المضيق، وهو شعب بنى وطنه، بالتضحيات الغالية، عبر ثورة أفضت إلى تحرره من الإستعمار الفرنسي، أدرك أن الحرية حق مقدس للشعوب، وأن الحرية لا تُقدر بثمن، حتى ولو سُفِكت في سبيلها دماء غزيرة، دماء الشهداء والجرحى، وأنّ على الشعب المتطلع إلى الحرية أن يقدم ما عليه من واجبات وتضحيات، وأنه دون ذلك، فإن الحديث عن الحرية، مجرد لغو لا معنى له، بل هو أحياناً ذريعة واهية للتهرب من الواجبات الكبرى.

ضمن هذه الأجواء، إنخرط مع رفاقه في العمل الوطني والنقابي في إطار «أشد» وإتحاد طلاب فلسطين في الجزائر، واحتل مكانة متقدمة في النهوض بواجباته طالباً جامعياً، إلى جانب رفاقه، من أجل فلسطين.

■ **النقطة الثانية في حياته**، كانت عندما أنهى في الجزائر دراسته الجامعية، وبات عليه أن يعود مرة أخرى إلى قطاع غزة، يحمل معه علماً ومعرفة، ليكرس حياته، منذ تلك اللحظة، للتفرغ للعمل الوطني، واحداً من الكوادر المتقدمة للجبهة الديمقراطية في القطاع، يجند خبراته في خدمة شعبه وفي خدمة منظمات حزبه في القطاع، حيث تآلق دوره كمنظم من طراز رفيع قادر على إجتراح أشكال التنظيم واعتماد أشكال النضال المناسبة لاحتياجات تقدم دور حزبه في العملية الوطنية. وفي الوقت نفسه بدأت مكانته تتقدم، ودوره الوطني يتعزز عبر انتسابه إلى الاتحادات الشعبية التي توفرت لديه شروط الإنتساب إليها، ثم بدأ يتدرج في نهوضه مضطجاً بدوره الوطني، فتقلد المواقع التالية:

- ممثلاً للجبهة الديمقراطية في الهيئة الوطنية لكسر الحصار وحقوق العودة.
 - عضواً في المجلس الوطني الفلسطيني.
 - ممثلاً للجبهة الديمقراطية في اللجنة العليا للتنسيق في القطاع.
- تراه في مقدمة الصفوف في التظاهرات والإعتصامات الشعبية في طول القطاع وعرضه؛ تراه على خطوط التماس في أيام «الجمعات» في مسيرات كسر الحصار وحقوق العودة؛ تراه متحدثاً مفوهاً إلى رجال الإعلام حتى بات أحد المراجع الدائمة لمندوبي الفضائيات والصحف ومراكز الإعلام في القطاع.

هذه النشاطية المتميزة في العمل الجماهيري والوطني، لم تُثنته على الصعيد التنظيمي الداخلي عن تركيز جهده على عملية البناء الحزبي، بتعقيداتها وصعوباتها التي يدركها كل من دخل هذا العالم، مراكمًا الخبرات والمهارات الناجمة عن الممارسة الهادفة، فأبدع بحرفيته ومثابرته وتحليه بمواصفات من تعاطى «الهندسة التنظيمية» على خلفية الإلمام بـ«هندسة علم الأحياء» التي اكتسبها من دراسته الجامعية.

■ **النقطة الثالثة** كانت مع انفجار «طوفان الأقصى»، وبات عليه في هذه المحطة، أن يحسم خياره، كأى قائد وطني، بين تلبية إستحقاقات موقعه القيادي، في صفوف رفاقه وأبناء شعبه، وبين تلبية واجباته العائلية. مهماته السياسية والتنظيمية كانت دائرتها الواسعة شمال القطاع، أي مدينة غزة وجوارها، ومنزله حيث تقيم عائلته في عسبان الكبرى في جنوب القطاع.

وكما هو منتظر من أى قائد، إنحاز لواجبه الوطني، وبقي في الشمال، تصاعدت عمليات القصف التدميري، والاجتياحات، لكنه بقي ثابتاً، صامداً ولم يغادر، وبقي يتنقل من مكان إلى آخر، في شمال القطاع في قيادة منظمات الجبهة الديمقراطية، بالتوجيه لجناحها العسكري «قوات الشهيد عمر القاسم»، والدور الميداني في مراكز الإيواء والمستشفيات، جنباً إلى جنب مع لجان العمل الطوعي، من الجبهة الديمقراطية ومن الفصائل الأخرى، في تعزيز صمود الناس، في حرب، أدرك أنها ستكون طويلة.

■ **وختاماً، أتت النقطة الرابعة**، حيث طالت الحرب، وبقي شمال القطاع ساحتها الرئيسية، بالكاد تصله أنباء عائلته، ودع عدداً من أقربائه، قضوا بنيران الطائرات الحربية الإسرائيلية.

وفي ليل 16/5/2024، وبينما كان يأوي، في ساعات الليل الأخيرة، إلى مهجعه، الذي لم يكن يعتقد أنه كان آمناً بالقدر الكافي، سقطت من الأعلى، صاعقة أميركية الصنع، ألقت بها طائرة أميركية الصنع أيضاً يقودها طيار إسرائيلي، أحالت المنزل إلى دمار شامل، وحولته مع رفيقه القائد العسكري الميداني محمود حمادي، إلى أشلاء، بذل رفاقهما جهداً مضنياً في تجميعها في أكياس رحيل الشهداء.

وفي جنازة مهيبة، شديدة التواضع، عميقة في رمزياتها، ووري ورفيقه محمود الثرى، محاطاً بألم الفراق الأخير، ليصبح طلال أبو ظريفة عضو المكتب السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، ذكرى لا تُنسى، إلى جانب الآلاف من أبناء منظمات الجبهة الذين سبقوه، والذين سيلحقون به، إلى الشهادة، على طريق القدس.

طلال أبو ظريفة، أيها الرفيق، لقد كنت قائداً بالفطرة، صقلتك التجربة في الميدان، وكان شعارك دائماً: «لسنا هوية تبحث عن مكان، بل مناضلون من أجل حرية الوطن» ■

فهد سليمان

28/8/2024

الفهرس

3.....	■ هذا الكتاب
9.....	■ لكم المجد والرايات
13.....	■ الفصل الأول: قادة من فلسطين
15.....	● ياسر عرفات
17.....	● جورج حبش
21.....	● إسماعيل هنية
24.....	● أبو علي مصطفى
27.....	● بسام الشكعة
31.....	● محمد الضيف

■ الفصل الثاني: قادة من حركة التحرر الوطني.....	35
● كمال جنبلاط.....	37
● محمد بنسعيد.....	41
● أنطون سعادة.....	45
● فرحات حشاد.....	48
● أحمد نبيل الهلالي.....	52
■ الفصل الثالث: قادة من الحركة النسائية.....	57
● عصام عبد الهادي.....	59
● نهاية محمد.....	62
● سميحة خليل.....	68
● آمنة الريماوي.....	78
● شادية أبو غزالة.....	81
● أم ناصر.....	84
■ الفصل الرابع: أدباء في دروب العمل الوطني.....	87
● سالم النحاس.....	89
● الياس خوري.....	92
■ الفصل الخامس: بالدم.. رسموا فلسطين.....	95
● توفيق عبد العال.....	97
● ناجي العلي.....	102
■ الفصل السادس: قادة من الجبهة الديمقراطية.....	105
● عمر القاسم.....	107
● أبو عدنان.....	115
● هشام أبو غوش.....	123
● أبو خلدون.....	126
● خالد عبد الرحيم.....	129
● خالد نزال.....	132
● سامي أبو غوش وزوجته مها.....	134
● طلال أبو ظريفة.....	139
■ فهرس.....	143

